احتلال بحر الغزال

مضى على احتلال بحر الغزال عشرة أعوام[١] ولا تزال آثار تلك الرحلة خالدة فى النفس فرأيت أن أكتب شيئاً عنها مما لا يزال عالقا فى ذاكرتى أو دونته فى مفكراتى أوكتبت به فى رسائلى إلى أهلى وأصدقائى . عشرة أعوام مضت ولكن ذكرى الرفقاء الذين تركناهم فى تلك البلاد لم تنقض . رفقاء الشدة والخطر والتعب والمرض والجوع والعطش . بعضهم خير من لقيت من الفتيان . كرام بواسل لا يهابون الموت . منهم من يقتحم الأسد فى عرينه أو يقتل الفيل على بعد عشر خطوات أو يقف وحده أمام العدو فيرد على أعقابه حتى يجمع الجنود شملهم ويعودوا لإنقاذه فيجدونه مضرجاً بدمائه وحوله جثث الأعداء . قبورهم منتشرة فى تلك البلاد وواحد منهم لا يعرف له قبر فإن الأعداء لم يتركوا له أثراً وآخر حملته منيته إلى بلاده فمات بين أهله . وسيأتى ذكر كل واحد منهم لكننى سأبدأ أولا بذكر شئ عن تاريخ هذه البلاد قبل احتلالها الأخير فأقول :

بحر الغزال نهر كبير يمد النيل من غربيه إلى الجنوب من فشوده وبه سميت البلاد التى يخرج منها وهى الآن مديريتى السودان يحدها شمالا دارفور وكردوفان وجنوبه ولاية الكنغو الحرة وشرقاً النيل الأبيض ويعرف هناك بحر الجبل نسبة إلى الجبل الرجاف وغرباً الكونغو الفرنسوى .

وهى بلاد واسعة الأرجاء واقعة بين الدرجة الخامسة والدرجة العاشرة من العرض الشمالى ولم يكن يعرف شئ عنها عند الأوربيين قبل أواسط القرن الماضى ولا يعلم أول من دخلها من العرب ولم أرلها ذكراً فى ما وقفت عليه من المؤلفات العربية وربما كانت طوائف لملم ودمدم وتميم أونمنم التى ذكرها الإدريسى وشمس الدين الدمشقى من سكان هذه البلاد أو ما يجاورها فقد جاء عن هؤلاء

---

(١) نشر هذا المقال فى مجلة المقتطف فى المجلدين ٣٩ و ٤٠ عام ١٩١١ و ١٩١٢ . لما كان كاتبه طبيباً برتبة اليوزباشى فى الجيش المصرى .

الأقوام أنهم من أكلة لحوم البشر وأنهم يتعاملون بالخرز والنحاس كما يتعامل سكان بحر الغزال فى أيامنا . وذكر الإدريسى نهراً يجرى من منابع النيل غرباً ولعله النهر المعروف بنهر الولى وهو من السواعد الكبرى التى تمد نهر الكنغو .

وأول من دخل بحر الغزال من الأوربيين رجل من ويلس يدعى جون بترك وكان ذلك سنة ١٨٥٦ ، ثم كثر الرواد بعده وأشهرهم المدموازل تينه Tinne وهى سيدة هولاندية كانت على جانب عظيم من الثروة سافرت إلى بحر الغزال سنة ١٨٦٣ ومعها والدتها وخالتها وجماعة من العلماء منهم البارون فون هوغلن . ومن مشاهير العلماء الذين دخلوا تلك البلاد العالم النباتى المشهور الدكتور شوينفورث قضى فيها ثلاث سنوات وكتب فى وصفها كتاباً سماه « قلب إفريقة » هو أحسن ما كتب عن تلك البلاد حتى الآن . ووصل فى رحلته إلى بلاد النمانم آكلة لحوم البشر واكتشف نهر الولى المذكور آنفاً . ومن الذين دخلوا بحر الغزال وكتبوا عنه جسى باشا الإيطالى ويونكر الألمانى وغيرهما .

تجارة الرقيق

اشتهر بحر الغزال فى تجارة الرقيق والعاج فكان تجار مصر والسودان يسيرون إليه العصابات المسلحة فى كل عصابة مئة رجل وأكثر فإذا وصلت العصابة إلى مكان رأت فيه مغنما حفرت لنفسها خندقاً وأقامت حوله زريبة من الشوك وأخذت تجمع العاج والريش من الأهالى مقايضة بالخرز ورؤوس الحراب وأساور النحاس لأن لهذه الأشياء قيمة كبيرة فى تلك البلاد كما سيجئ . ثم إذا رأى رجال الزريبة فرصة هجموا على القرى والناس فيها غافلون فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وساقوهم عبيداً وباعوهم فى أسواق الرقيق فى السودان ومصر وبلاد العرب . هذه هى الحال التى كانت عليها تلك البلاد فى أواسط القرن الماضى . قال لى شيخ كبير لقيته هناك « أتعلم أن طربوشك الأحمر هذا مصبوغ بدم أولادى » وقال جسى باشا فى وصف رحلته أنه لم يكن فى حاجة إلى الأدلاء فإن عظام العبيد الذين كانوا يموتون على الطريق كانت خير دليل له .

الزبير باشا

وبقيت البلاد على هذا المنوال إلى أن تغلب الزبير باشا عليها وامتلكها فعينه الخديوى إسماعيل باشا سنة ١٨٧٣ حاكماً عليها. ثم افتتح الزبير دارفور واستدعاه الخديوى إلى مصر فخرج ابنه سليمان على الحكومة ، وبعد مواقع بينه وبينها اتفق مع جسى باشا على التسليم هو وعدد كبير من رجاله ثم قتلهم جسى باشا بعد تسليمهم لأسباب لا محل لذكرها هنا . ولا يزال الزبير يطالب بدم ابنه وأبناء أعمامه وأمواله إلى هذا اليوم . وكان مع سليمان بن الزبير عبد اسمه رابح أبى التسليم معه وسار غرباً ومعه بعض الرجال الذين كانوا على رأيه وأقام فى بورنو وصار سلطاناً عليها وأمره مشهور مع الفرنسويين حاربهم زمناً ثم قتل منذ بضع سنوات . ولما قتل سليمان الزبير عين لبتن بك من رجال البحرية الإنكليزية مديراً عاماً لبحر الغزال وساتى بك من أهالى دنقله مديراً ثم كانت ثورة المهدى فسافر ساتى بك إلى الخرطوم لجلب المؤونة والذخيرة فوجد الدراويش محيطين بالمدينة فدخلها وبقى فيها يحارب حرب الأبطال إلى أن قتل فى موقعة القطينة

الأمير كرم الله الكركاوى

أما لبتن بك فبقى فى بحر الغزال يرد غارات الدراويش تحت قيادة أميرهم كرم الله الكركاوى ثم سلم لهم بعد قتال ثمانية عشر شهراً وأسلم هو ومن معه من الأقباط على يد الأمير كرم الله فسماه كرم الله الأمير عبد الله ثم أرسله إلى المهدى فزجه المهدى فى السجن ثم أطلقه وتوفى بعد ذلك فى أم درمان وله فيها ابنتان لا تزالان هناك حتى الآن .

وبقى كرم الله فى بحر الغزال إلى سنة ١٨٨٦ ثم ارتحل عنه برجاله وعادت الأحكام فيه إلى سلاطينه وشيوخه . وقتل كرم الله فى الفاشر سنة ١٩٠٣ قتله على دينار سلطان دارفور وقد كان معه فى بحر الغزال أخ اسمه محمد سافر معنا إلى بحر الغزال سنة ١٩٠٠ ، قال لى محمد الكركاوى مرة وقد رأى جماعة

من أهالى البلاد هناك « انظر إلى هؤلاء الكلاب فقد كان كلهم عبيدى منذ سنوات » فكأنه يتمثل بقول الشاعر :

كان منا الملوك فى سالف الدهر وكنتم لنـــا قديماً عبيـــدا

تجريدة مرشان

وبقيت البلاد تحت سلطة شيوخها وسلاطينها إلى أن كانت سنة ١٨٩٤ فاتفقت حكومة فرنسا مع ولاية الكنغو على احتلالها واحتلت بعض المواقع . وفى أوائل سنة ١٨٩٦ سار الكولونل مرشان من الكنغو الفرنساوى ومعه ستة ضباط فرنساويين وطبيب ومترجم واثنا عشر صف ضابط فرنسوى ومئة وخمسون جندياً من جنود السنغال السود ومدفعيتان وثلاثة مراكب من الألومينيوم فاخترق البلاد من أولها إلى آخرها وبنى فيها الحصون والمعاقل وجعل قاعدته قلعة ديزاه (Fort Desaix) وتسمى الآن واو وهى عاصمة بحر الغزال . وبعد أن عانى ما لا يوصف من المشاق والأخطار وصل إلى فشودة فى العاشر من شهر يوليه سنة ١٨٩٨ أى قبل استيلاء الحكومة على أم درمان بأقل من شهرين فأرسل الخليفة سرية لقتاله معها مدفعيتان فردها مرشان على أعقابها بعد أن قتل عدداً كبيراً من رجالها . ثم كانت حادثة فشودة بين انكلترا وفرنسا على ما هو مشهور وانتهت بإخلاء الفرنساويين لبحر الغزال وفشودة .

عزم الحكومة على احتلال بحر الغزال واستعداد التجريدة للسفر

وعادت الفوضى إلى بحر الغزال إلى أن عزمت الحكومة السودانية على احتلاله فأنفذت لذلك قوة عسكرية بقيادة سباركس بك وكان ذلك فى أواخر سنة ١٩٠٠ فبلغنى أمر هذه التجريدة وأنا فى شندى وسمعت أن البكباشى هيمس من القسم الطبى قد عين رئيساً لأطبائها فكتبت إليه ولم يكن بيننا معرفة وسألته أن يطلب من رئيس أطباء الجيش إرسالى معه وبعد بضعة أيام أتانى تلغراف من حكيمباشى الجيش يأمرنى فيه بالسفر إلى أم درمان لمرافقة القوة المسافرة إلى بحر الغزال فتعرفت هناك بالضباط المسافرين مع هذه القوة وبقينا فى أم درمان

أياماً نستعد فيها للسفر ونشترى ما نحتاج إليه من الخرز والأسلاك والأساور والأنسجة وأسلحة الصيد . وأخذ بعضنا مؤونة سنة من السكر والشاى والبن والحبوب والفواكه اليابسة والأطعمة المحفوظة فى العلب وما أشبه . وفى التاسع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٠ أبحرنا من أم درمان على ثلاث بواخر وسرنا ونحن لا ندرى من منا يرجع سالماً .

وكانت سريتنا مؤلفة من ١٦ ضابطاً ومترجم وكاتب و ٨٤ من الجنود المنظمة و ٢٦٦ من الجنود غير المنظمة و ٢١٦ من نساء العساكر وأولادهم وصحبنا من الأدلاء محمد الكركساى المذكور آنفاً ورجلان آخران معه ونحو مئة رجل وامرأة من مهاجرى البلاد العائدين إلى أوطانهم وكانوا قبلا عبيداً فى الخرطوم وما يجاورها . وأخذنا معنا حصاناً واحداً للتجربة وسبعة بغال و ٨٧ حماراً لحمل المؤونة . وكان معنا من البضائع لمقايضة الأهالى ما تبلغ قيمته ألف جنيه تقريباً أكثرها أنسجة وأساور نحاس وخرز . وأخذنا ٥٠٠ كيس من النسيج الكتيم الذى لا ينفذه الماء و ٧٥ صندوقاً صغيراً كلها مبطنة بالصفيح لا ينفذها الماء ولا تقرضها الأرض وهى كثيرة جداً فى تلك البلاد . وكان معنا عدد كبير من الكلل لاتقاء البعوض والمشمعات للوقاية من المطر والرطوبة وأدوات الزراعة والنجارة والحلاقة وتصليح السروج والسلاح وما أشبه . أما الأدوات الطبية فلم ينقصنا شىء منها . وهناك أسماء الضباط والموظفين الملكيين حسب رتبهم حينئذ .

ضباط التجريدة

الميرالاى سباركس بك قائد القوة وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة ميرلوا ثم استقال من الجيش المصرى وتوفى فى بلاد الإنكليز .

البكباشى بلنوى من المدفعية وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة قائمقام فميرالاى وعين مديراً لبحر الغزال وتوفى هناك سنة ١٩٠٥ .

البكباشى برى من السوارى رقى بعد ذلك إلى رتبة قائمقام واستقال من الجيش المصرى ثم استقال من الجيش الإنكليزى ولم يبق غيره حيا من الضباط

الإنكليز الذين رافقوا هذه التجريدة وهو الآن الماجور برى سكرتير نادى السباق فى هليوبوليس .

البكباشى هيمس من القسم الطبى جرح فى واقعة النمانم وتوفى فى مارس سنة ١٩٠٤ فى بحر الغزال .

اللفتيننت فل من البحرية الملكية كان قائد البواخر فى هذه التجريدة ولحق بنا فى التوفيقية جنوبى شنودة . وقد استقال من البحرية بعد انتهاء التجريدة فألحق بحكومة السودان ومنح رتبة قائمقام وتوفى فى بحر الغزال سنة ١٩٠٥ .

البكباشى فرج افندى أبو زيد من البيادة وهو الآن من الضباط المتقاعدين

اليوزباشى عباس افندى عثمان من البيادة وهو الآن من الضباط المتقاعدين

اليوزباشى مرسال أفندى نصرت من البيادة وقد بقى فى بحر الغزال زمناً ثم ارتحل عنها .

الملازم أول محمد أفندى صبرى من البيادة وقد توفى فى بحر الغزال سنة ١٩٠٢ .

كاتب هذه السطور وكان برتبة ملازم أول ثم رقى إلى رتبة يوزباشى واستقال من الخدمة .

الملازم أول نجيب أفندى شديد من القسم الطبى وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة يوزباشى واستقال من الخدمة .

الملازم الثانى أحمد أفندى كامل من السوارى وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى وهو الآن فى مصر القاهرة .

الملازم الثانى أحمد افندى درويش من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى وهو الآن فى مصلحة الحفر .

الملازم الثانى ريحان أفندى عبد الله من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى .

الملازم الثانى محمد أفندى على من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى .

الملازم الثانى محمد أفندى أمين من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول

ثم إلى رتبة يوزباشى وهو (الآن) مأمور تلودى فى كردفان .

يوسف أفندى صدقى مترجم التجريدة .

محمد بك عبد الغفار باشكاتب التجريدة .

وأربعة من هؤلاء الضباط سودانيون من سكان تلك البلاد فى الأصل لكنهم ربوا فى مصر أو ولدوا فيها وهم : فرج أفندى أبو زيد ، ومرسال أفندى نصرت وريحان أفندى عبد الله ومحمد أفندى أمين . وواحد تركى المولد والأصل وهو عباس أفندى عثمان . وأربعة مصريون وهم محمد أفندى صبرظى وأحمد أفندى كامل وأحمد أفندى درويش ومحمد أفندى على . واثنان سوريان وهما الدكتور نجيب شديد وكاتب هذه السطور والباقون إنكليز وكان معنا أيضاً جاويشان إنكليزيان ولحق بنا هناك ضباط آخرون أو جاءوا بعدنا وهم القول أغاسى على أفندى وهبى توفى هناك والبكباشى سكوت باوبر قتله الأهالى والقائمقام أرمسترنج بك داسته الأفيال والقائمقام وود بك وغيرهم .

القيام من أم درمان ووصف النيل الأبيض

وكان قيامنا من أم درمان فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٠٠ ومعنا ثلاث مدفعيات نيلية وهى الظافر والحفير والتوفيقية ومع كل مدفعية صندلان وقياستان أو ثلاث مربوطة فيها « الصنادل والقياسات من مراكب النيل » فسارت البواخر بنا فى النيل الأبيض جنوباً أم درمان عن يميننا والخرطوم عن شمالنا . ولم تكن البلاد التى سرنا فيها أولا مجهولة عند الكثيرين منا لأننا مررنا فيها قبل ذلك بسنة لمحاربة الخليفة . وكانت البواخر تسير بنا ليلا ونهاراً ولم نكد نسير يومين أو ثلاثة حتى وصلنا إلى قوز أبى جمعة وهى آخر محطة كان فيها مكتب للتلغراف فى تلك الأيام فلما تركناها وراءنا شعرنا كأننا انقطعنا عن العالم . وكان مأمور قوز أبى جمعة المرحوم اليوزباشى محمد شريف . وأن لسانى ليعجز عن وصف ما رأيته منه من كرم الأخلاق وحسن الضيافة ولاأزال أذكر حادثة جرت أمامى بينه وبين الأهالى أظهر فيها ما جبل عليه من اللين

وطول الأناة . ولم تمض على ذلك بضع سنوات حتى قتله الأهالى غدراً فى الكاملين المشهورة . ومن الأماكن التى مررنا بها جزيرة أبا وهى المكان الذى أقام فيها المصرى ونشر دعوته منه وعلى مقربة منها مكان فى النيل يعرف بمخاضة أبى زيد يزعم أهالى السودان أن أبا زيد الهلالى خاض النيل منها فى رحلته إلى المغرب والنيل هناك واسع جداً فإذا جاء زمن انخفاضه قل الماء فيه كثيراً فلايزيد عمقه فى أعمق مكان على قدمين .

الوصول إلى فشودة والتوفيقية

وكنا كلما نفد الوقود منا نقف قرب غابة من الغابات نحتطب منها ثم وصلنا بعد أيام إلى مكان يسمى الرنك فكان آخر عهدنا بالعرب هناك وأول عهدنا بالسود والبعوض. وبعد مسير تسعة أيام وصلنا إلى فشودة فوجدناها تكاد تكون خراباً ليس فيها إلا أطلال المعاقل التى بناها الكلونل مرشان . وفقدنا هناك أول رجل من رجالنا كان يستقى من النيل فسقط الدلو منه فنزل لانتشاله فى مكان لايزيد عمق الماء فيه على ذراعين فلم يكد يصل إلى الماء حتى اختفى كلمح البصر كأن تمساحاً جذبه من قدمه وجرّه تحت الماء .

ثم أقلعنا من فشودة إلى التوفيقية فلقينا فيها جماعة من الأصدقاء الأوفياء منهم الدكتور اسكندر القيم فأحسنوا وفادتنا وبتنا تلك الليلة فى ضيافتهم ثم تركنا الظافر والحفير وانتقلنا منهما إلى مدفعيتين آخريين اسمهما أبو طليح وخيبر ولحق بنا هناك اللفتننت فل واستلم قيادة البواخر .

قبيلة الشلك

وكنت أود أن أكون شاعراً لأصف تلك البلاد وأهاليها ومعظمهم من قبيلة الشلك وهم طائفة من السود طوال القامة أشداء سلاحهم الرماح والدرق والدبابيس ولرجالهم عناية كبيرة بشعور رؤوسهم يضفرونها أشكالا وأكثرهم عراة وقد يستتر

بعضهم بمئزر من الجلد أو النسيج . أما النساء فيحلقن شعورهن أو يقطعنها ويستترن بمآزر الجلد . وقبيلة الشلك كبيرة جداً منتشرة على ضفة النيل الغربية من بحيرة نوالى الكاكا ويقيم عدد قليل منها فى نواحى فاشودة والتوفيقية على الضفة الشرقية . وعليهم ملك يكاد يكون مستقلا فى الأماكن البعيدة عن مراكز الحكومة .

دخولنا فى بحر الغزال

أقلعنا من التوفيقية فى التاسع من شهر ديسمبر وبعد مسير يوم وليلة وصلنا إلى بحيرة نو حيث يلتقى بحر الغزال وبحر الزراف وبحر الجبل لذلك يسميها العرب مقرن البحور . وهى بطيحة من بطائح النيل تكثر فيها النباتات المائية كالبردى والنيلوفر والعنبج . وفيها من الطيور المائية نوع من اللقلق غريب الشكل جداً له منقار كبير منعقف كالحذاء العربى لذلك يسميه العرب أبا مركوب وقد أخذ الإنكليز هذا الاسم عنهم وسموه (Shoe-bill) . وأفراس النهر والتماسيح كثيرة جداً هناك . ويصعب النزول إلى البر فى هذه البحيرة وفى بحر الغزال لكثرة النباتات المائية ويكاد الرائى لا يعرف أين ينتهى البر ويبتد الماء فإذا رأى شجراً عرف أن الشجر فى البر لا فى الماء . والبر بعيد جداً عن مجرى الماء لأن بحر الغزال بحيرة أو مستنقع كبير يجرى الماء فى وسطه فقط وسائره مغطى بالنباتات وهو كثير هناك وهذا شأن أكثر الأنهار التى تمد النيل فى أعاليه ومتى اشتبكت هذه النباتات المائية بعضها ببعض انفصلت من جذورها وطفت على وجه الماء وكأنها عائمة سدت النهر كله فيسحبها الملاحون بالسد . ويعسر حينئذ سير المراكب والبواخر وربما اجتمع السد حولها وحبسها كما يحبس الجليد السفن فى الأصقاع الشمالية . وقد حبس السد جسى باشا ورجاله سنة ١٨٨٠ نحو شهرين فى بحر الغزال ، فعضهم الجوع ومات عدد كبير منهم وأكل بعضهم لحم القرود التى كانت معهم . والنباتات المائية التى هناك أنواع كثيرة منها البردى والنيلوفر والبوص . ومنها نبات يشتبك بعضه ببعض يسميه العرب أم صوف (panicum pyramidale) ومنها نجم شائك يدعى العنبج (Herminiera elaphroxylon)

متى جف خشبه صار أخف من الفلين فيصنع السود منه أرماثاً وقوارب يركبونها في النهر ، فإذا خرج الواحد منهم من الماء أخرج رمثه أو قاربه وحمله إلى بيته . ومن الأشجار الغريبة شجر الدليب وهو نوع من النخل يشبه الدوم لكنه ذو ساق واحدة لا فروع بها وله ثمر أصفر اللون يشبه الأناناس في طعمه لكنه شديد الصلابة . ولا وجود للدوم هناك فيحل الدليب محله ، وهو مثله لا ينبت إلا على مقربة من الماء . والأماكن التي ينبت فيها الدوم والعشر يكون الماء فيها قريباً من سطح الأرض . والقرى على ضفاف مقرن البحور قليلة جداً وبيوتها متفرقة بعيدة عن مجرى الماء وهي منازل قبيلة من السود تعرف بالنوير . أما بحر الغزال فلا أذكر أنني رأيت ما يدل على وجود الإنس بقربه فكأن البلاد هناك خالية خاوية على أننا رأينا مرة جماعة من السود مجتمعين على جثة فرس نهر وهم يقطعون اللحم منها ويقددونه في الشمس .

وكان شوقنا عظيما ونحن سائرون لرؤية الأفيال . وفي مساء يوم رأينا أربعة منها فلما رأتنا وقفت تتفرج علينا لكنها كانت بعيدة عنا ولم نجد مكاناً ننزل منه إلى البر لنطلق الرصاص عليها عن قرب فتركناها وشأنها .

الوصول إلى مشرع الريك

وفي الرابع والعشرين من شهر ديسمبر وصلنا إلى مشرع الريك وهو آخر مكان تصلح الملاحة فيه ، فأرست بنا البواخر قرب جزيرة هناك فنزلنا فيها وجعلناها قاعدة أعمالنا . وفي اليوم التالي أضرمنا النار في العشب ثم نصبنا خيامنا وأنزلنا أمتعتنا وبضائعنا ، واختط العساكر والمهاجرون أماكن لنزول عائلاتهم وأخذوا يبنون المنازل فيها ، ولم تمض أيام قلائل حتى صار ذلك المكان قرية عامرة . ولا أنس الساعة التي أنزلنا الحمير فيها من الصنادل بعد أن حبست فيها ستة عشر يوماً ، ثم أطلقناها تسرح وتمرح وتتمرغ وتنهق غير عالمة بما قدّر لها وأنها ستكون كلها طعماً للثعالب والضباع في بضعة أشهر . وكان حماري أشدها حبوراً . ولهذا الحمار قصة غريبة ، فإنه بعد أن خدمني خدمة صادقة أكثر من ستة أشهر

أنقذنى من الإفلاس بعد موته كما سيأتى ذكره فى حينه .

كانت الجزيرة التى نزلنا فيها موحشة جداً ليس فيها ما يدل على وجود الإنس بل كانت خاوية كأن لم يدخلها بشر قبلنا . وكان الماء حولها مغشى بورق النيلوفر لا يرى الماء تحته حتى يخيل للناظر أن السفن راسية فى البر لا فى الماء . ورأينا هناك طائراً من طير الماء قدر الحامة يمشى على ورق النيلوفر كأنه يمشى على اليابسة وهناك أيضاً نوع من دجاج الماء أسود اللون صغير الجثة جميل جداً يرى سائراً بين البردى على جانب من الماء . والطيور المائية الأخرى كثيرة جداً منها الحوصل وأبو منجل والغواص والغماسة والبط والأوز وما أشبه ذلك.

منشور الأمان

وبعد وصولنا بيومين جاء بعض أهالى القرى المجاورة وبينهم شيخ عشيرة تعرف باللو فجمعهم سباركس بك وتلى عليهم منشور الأمان وقد جاء فيه : إننا قادمون لإعادة الأمن إلى البلاد واحتلالها باسم الحكومة ، فكانوا يؤمنون وهم لا يفهمون شيئاً مما تلى عليهم . ثم وزع الهدايا عليهم وخلع على شيخ اللو خلعة سنية مما يخلع عادة على سلاطين السودان وملوكه وهى حلة حمراء مزركشة بالقصب . وقلده سيفاً عربياً ووضع عمامة حمراء على رأسه فخرج فرحاً مسروراً يجر سيفه تيها وعجباً ويكاد يعثر بأطراف ثوبه .

الخرز والنحاس والعاج

ولما أمن الأهالى جانبنا وعلموا أننا لم نأت للنهب ولا نريد بهم سوءاً أخذوا يفدون علينا ومعهم الغنم والدجاج واللبن والسمن واللوبياء والبامية والذرة والسمسم والفول السودانى المعروف فى الشام بفستق العبيد ، فكنا نشترى ما نحتاج إليه مقايضة بالخرز والنحاس والأنسجة نشترى الخروف بأسوار من النحاس لا تزيد قيمته على قرش واحد ، والدجاجة ببضع خرزات ثمنها مليم أو نحو أربع بارات .

وكان معنا من الخرز أنواع كثيرة مما يرغب فيه أهالى البلاد أشهرها نوع يعرف بالجنتور وهو أسود أو أحمر منقط بالبياض الحبة الواحدة منه قدر الحمصة وثمن الألف حبة نحو خمسين قرشاً . أما النحاس فله قيمة كبيرة فى تلك البلاد ولشدة رغبة الأهالى فيه كان بعض العساكر يقايضونهم بخرطوش البنادق بعد تفريغ الرصاص والبارود منه، فصدر أمر مشدد يحظر ذلك عليهم . وقد رأيت مرة دجاجة مع أحد الأهالى فقلت له أتبيعها قال أبيعها فتناولت سلكاً من النحاس طوله نحو شبر ووضعته على كفى ووضعت جنيها على الكف الأخرى وقلت له خذ إحدى هاتين القطعتين ثمن دجاجتك، فأخذ ينظر تارة إلى السلك وتارة إلى الجنيه كأنه يقدر وزنهما فرأى أن السلك أكبر حجماً فأخذه . وأخذت واحداً منهم مرة إلى إحدى البواخر وأريته ما فيها من أدوات النحاس الضخمة فكان ينظر إليها مندهشاً من غنى الحكومة . واشترى بعضهم نابين من العاج بأساور وأنسجة ونقود من الفضة تبلغ قيمتها كلها ٤٥قرشاً، وكان وزن الناب الواحدة منهما ١٣٥ ليبرة والأخرى ١٣٨ ليبرة وثمن النابين نحو مئة وخمسين جنيها وهما أكبر ما رأيت من الأنياب . وقد يزيد وزن الناب الواحدة على ذلك كثيراً فقد أهدى إلى ملك الإنكليز الحالى لما زار منيسة منذ سنوات ناب من العاج وزنها ١٨٤ليبرة، وقرأت بعد عودتى من بحر الغزال أن بيتاً من البيوت التجارية الأميركية اشترى نابين وزن الواحدة منهما ٢٢٣ ليبرة والأخرى٢٢٥ ليبرة وهما أكبر الأنياب المعروفة . ويظهر أن رغبة السود فى النحاس قديمة جداً، فقد ذكر الدمشقى (القرن السابع للهجرة) فى كتاب نخبة الدهر أن أهل الحبشة العليا يختارون الصفر على الفضة ويتحلون به دونه ودون الذهب، وقال عن بعض طوائف السود ما نصه (والكفار والملم تميم ودمدم فمن قارب المسلمين يسترون أبدانهم بجلود ، ومن بعد منهم يأكلون من وقع إليهم من الناس من غير جنسهم لشدة توحشهم من الناس وهم دمدم . والذهب فى بلادهم كثير لكنهم لا يستعملونه وإنما يستعملون النحاس يحمل إليهم فيترك على أطراف أرضهم فإذا رأوه اشتغلوا بنهبه والقتال عليه ، فيأخذ جالبوه ما قدروا عليه من الذهب ويهربون) .

قبيلة الدنكا

ويعرف السود الذين فى تلك الجهات بالدنكا، وهم عشائر كثيرة أشهرها الجانق . لونهم أسود حالك وهم كالشلك والنوير وغيرهما من القبائل السود التى تقيم قرب الأنهار والمستنقعات فى أعالى النيل، طوال الأعناق والأطراف يشبهون الطيور المائية فى عاداتهم وأشكالهم . قال شوينفورث فى وصفهم ما تعريبه :

« من النواميس الطبيعية أن الأقاليم المتشابهة تنشأ فيها أشكال متشابهة من الحيوانات على أنواعها، كما يتضح بأجلى بيان فى هذه البلاد . ومما لا شبهة فيه أن بين الإنسان والحيوان مشابهة كلية فى الشكل والعادات فى كثير من الأماكن التى تختلف اختلافاً بيناً عما يجاورها من الأقاليم، فإقامة الشلك والنوير والدنكا فى السهول التى تكثر فيها المستنقعات على مقربة من النيل جعلت فرقاً كبيراً بينهم وبين السود المقيمين بين الصخور والآكام فى داخل البلاد، فنسبتهم إلى سائر البشر كما قال هوغلن كنسبة الطيور المائية إلى غيرها من ذوات الريش . وقد أحسن كثيراً فى هذا التشبيه فإن الواحد منهم يقف ساعة من الزمان على رجل واحدة ويسند الأخرى عليها فوق ركبتها كما تفعل الطيور المائية . وإن خواتهم الطويلة وسيرهم على مهل بين الحلفاء لأشبه بخطوات اللقلق وسيره . ومما يزيدهم شبهاً بهذه الطيور نحافة أطرافهم ودقة أعناقهم وصغر رؤوسهم » انتهى .

ورجال الدنكا كلهم عراة لا يستترون بشيء، وسلاحهم الحراب والدرق والدبابيس ويصنعون درقهم من الخشب أو جلود البقر والجواميس البرية، ويحملون أحياناً عصياً قصيرة ضخمة مصنوعة من خشب الطلح أو الأبنوس أو الخرتيت وهو قرن الكركدن . ويتزينون بالخرز وأساور العاج والنحاس، وأكثر ما يلبسون أساور العاج فى العضد تحت الكتف وأساور النحاس فى العضد والمعصم . أما نساء تلك البلاد فسأفرد لهن فصلا خاصاً يليق بهن لأن بعضهن على جانب عظيم من الجمال .

البعوض فى مشرع الريك

وكان بين الجزيرة التى نزلنا فيها وبين البرخوراو مستنقع عرضه نحو مئة متر وعمق الماء فيه يزيد على قامة الإنسان فجعلنا فوقه طريقاً أو جسراً (كبرياً) من النباتات المائية وكان الجسر طافياً على وجه الماء ونحن نسير عليه ذهاباً وإياباً . ولم يمض زمن حتى جف الماء من المستنقع فصرنا نسير على اليابسة، لكن جفاف الماء لم يخفف وطأة البعوض وهو كثير جداً هناك. فكنا إذا غربت الشمس نجلس تحت الكلل هرباً منه ولا نخرج من تحتها قبل شروق الشمس، وربما أكلنا وشربنا وكتبنا رسائلنا تحت الكلل . وقد كتبت مرة . كتاباً وكنت كلما سقطت بعوضة على وجهى أقتلها وأضعها فى علبة كبريت فارغة كانت أمامى فامتلأت العلبة قبل أن أنتهى إلى آخر الكتاب . وأنواع البعوض هناك كثيرة ، منها بعض الأنواع التى تنقل الحمى الملاريا فلا عجب أننا أصبنا كلنا بهذا الداء، أما الأهالى فيبنون منازلهم بعيداً عن المشتنقعات هرباً من البعوض . وفيهم فضلا عن ذلك مناعة من الملاريا فلا تصيبهم كما تصيب البعض .

احتلال التونج

وبعد وصولنا ببضعة أيام أخذ سباركس بك فصيلة من الجنود وبعض الضباط ومنهم البكباشى جيمس والدكتور نجيب شديد وأحمد أفندى كامل وغيرهم وساروا إلى نهر التونج على ١٢٠ ميلا من مشروع الريك قرب مكان يسمى جور ، غطاس فوصلوا إليه بعد مسير ثمانية أيام على أقدامهم، وكان هذا سيراً فى بحر الغزال دائماً لا فرق فى ذلك بين الضباط والعساكر فإن الدواب كانت قليلة ومعدة لحمل الذخيرة والمؤونة فقط . وكان مع هذه السرية بعض المهاجرين بينهم ثلاثة رجال وامرأة من أهل البلاد رآهم لورد كرومر فى أم درمان فألبسهم الحلل الحمراء وقلدهم السيوف. وأهدت لادى كرومر إلى المرأة بعض الملابس

ومظلة حمراء . وقد أخبرنى صديقى الدكتور نجيب شديد أن هؤلاء الرجال كانوا يسيرون معهم وهم عراة ثم إذا اقتربوا من إحدى الحلل لبسوا ثيابهم وتقلدوا سيوفهم وفتحت المرأة مظلتها ولو كان الوقت بعد الغروب ، فكان الشخص منا إذا تعب من المسير ورأى أن المرأة قد نشرت مظلتها عرف أنهم صاروا على مقربة من الحلة التى ينزلون فيها فتتجدد قواه .

ووصلت السرية إلى حلة التونج فى آخر يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٩ فرفعت العلم المصرى والعلم الإنكليزى عليها ، ولم يكن معها غير بروجى واحد فتقدم وضرب السلام الخديوى ونادت العساكر « افندى مزجوق يشا » لأول مرة فى تلك البلاد بعد مضى خمس عشرة سنة .

قرى الدنكا

لم يبق فى مشروع الريك إلا النساء وعدد قليل من الضباط والجنود ، ثم رجع البكباشى بلنوى بعد أيام من التونج فقلت له قد بلغت روحى التراقى وأحب أن أخرج من هذه الجزيرة أصطاد وأحرك قدمى . فقد بلغنى أن قطيعاً من الأفيال يأتى إلى الحلة المجاورة كل يوم ، فقال اذهب وقل لشيخها إننى أحب أن أرى سحنته ، وقد أرسلت فى طلبه مراراً ولم يحضر . فأخذت معى دليلا من المهاجرين ورجلا اسمه بلال وعسكريا من القسم الطبى اسمه عبد الجليل ، فلما اقتربنا من الحلة رأينا أشجاراً مكسرة وأغصانها مبعثرة فى كل ناحية ، فأخذ الدليل غصناً وأرانى لعاب الفيل عليه وكان جديداً . ثم تقدمنا قليلا فرأينا آثاراً أخرى تدل على أن الأفيال كانت هناك منذ زمن قريب . ومن عادة الأفيال أنها إذا مرت فى غابة كسرت الأشجار وفتحت طريقاً لها وربما كسرت الأغصان فقط وأكلت الورق الذى على أطرافها . وقد رأيت أشجاراً مكسرة أو مقلوعة من عروقها يبلغ قطر جذع الواحدة منها أكبر من شبر .

ولما وصلنا إلى الحلة ورآنا النساء والأولاد هربوا منا ثم رأينا رجلا سألناه عن منزل الشيخ فأرانا إياه وإذا بالشيخ جالس أمام منزله تحت شجرة أهليلج

ومعه بضعة عشر رجلا من قومه كلهم عراة ، أما هو فكان قد علم بقدومنا ولبس الحلة التى أهداها إليه سباركس بك . وبعد أن أخذنا نصيبنا من الراحة سألناه عن الأفيال فقال مر بنا قطيع منها منذ ساعتين ، ثم أرسل غلامين من غلمانه يفتشان عليها فعادا بعد ساعة وقالا إنهما لم يجداها ، فقال الشيخ ابق هنا إلى المساء فلابد أن تأتى الأفيال لترد الماء بقربنا ، فقلت لابد لى من العودة إلى المعسكر والمبيت فيه طبقاً للأوامر ، قال أنا أتوسط لك عند البك فلا يتغير خاطره عليك ، قلت إليك فى التونج ، قال أنا شيخ هذا البلد وصاحب الأمر فيه قلت لا بل أنا صاحب الأمر هنا وأن البكباشى بلنوى أمرنى أن أخبرك أنه كثير الشوق إلى رؤية سحنتك فاحضر إلى المعسكر غداً . قال : أشغالى كثيرة لا تسمح ، لى قلت نعم هى النوم تحت هذه الشجرة ، فضحك ثم وعدنى بالحضور إلى المعسكر وقام ودخل منزله وخرج بعد ذلك وعليه حلة قديمة كان أهداها إليه الكلونل « مرشان » كأنه يرينا أنه فى غنى عن ملابسنا . ثم قدم لنا قرعة فيها قليل من اللبن الحامض فقزت نفسى منه وكان بلال صائماً فلم يشرب شيئاً ، أما عبد الجليل فكان جائعاً وعطشاناً فشرب وأصيب بإسهال شديد وبقى طول الطريق يلعن الشيخ وضيافته .

ورأيت أن أسأل القوم شيئاً عن معتقداتهم الدينية فقلت للشيخ هل تعرفون الله خالق هذا الكون ومدبره؟ قال لا ، قلت بماذا تؤمنون إذا قال : نؤمن بمن نسميه « دنغ ديت » أى إله المطر قلت هل تدعونه أو تصلون إليه؟ قال لا قلت أين هو؟ قال لا ندرى ، قلت وأين مصيركم بعد الموت قال نضمحل نحن وسائر المخلوقات وكلنا فى ذلك سواء ، ثم أشار إلى كلب هناك وقال نموت كما يموت هذا الكلب ، وحانت بعد ذلك صلاة الظهر فقام بلال وصلى فكانوا ينظرون إليه معجبين ، فقلت لهم أتدرون ما يفعل؟ قالوا لا ، قلت إنه يصلى إلى الله خالق السموات والأرض وما عليها ، وإنه لم يشرب شيئاً من اللبن الذى قدمتموه لأنه صائم فإننا فى شهر رمضان وهو شهر الصوم عند المسلمين ، فاستغربوا ذلك كثيراً . وكنت أكلمهم بلسان الترجمان لأنهم لا يفهمون العربية . والحلة التى كنا فيها اسمها « لو » وهى كبيرة جداً وبيوتها بين الأشجار ، وهى أكواخ مستديرة جدرانها مبنية بالخشب

والطين وسقوفها مخروطة الشكل ومبنية بالخشب وعيدان القنا ومغطاة بالحشيش طبقة فوق الأخرى فلا ينفذمنها ماء المطر مطلقاً . وربما رفعوا أرض البيت على خشبات يغرزونها فى الأرض وقاية من الأرضة والرطوبة فإن الأرضة كثيرة جداً فى تلك البلاد .

ويقتنى الدنكا من الحيوانات الأهلية البقر والضأن والمعز والكلاب . وبقرهم دربانية أى من ذوات الأسمنة ، والضأن عندهم غريب الشكل له شيء كالعرف على عنقه وكتفيه فهو بذلك شبيه بالأروى أى الضأن الجبلى . وكلابهم خليط بين الكلاب البلدية والسلوقية وهى تنبح على البيض فقط لغرابة شكلهم فى تلك البلاد ، وأعجب من هذا أننى رأيت ظليما عند أحد الضباط فى التوفيقية كان يهجم على البيض أما السود فكان لا يلتفت إليهم ولا يؤذيهم . والدنكا لا يذبحون بقرهم بل يأكلون لحمها إذا ماتت وتكاد تكون مقدسة عندهم وغاية ما يتمناه الواحد منهم أن يكون عنده قطيع منها ، فإذا جاء المساء جمع هو وجيرانه ما عندهم من الماشية وأدخلوها فى زريبتها ثم جمعوا روثها وأحرقوه وجلسوا على الرماد يتمرغون فيه ، ولعل هذا التمرغ فى الرماد دليل الغنى بكثرة الماشية .

ولما حان العصر تركنا الحلة وعدنا إلى المعسكر ، ولم نكد نسير بضعة أميال حتى وصلنا إلى غابة من شجر الطلح رأينا فيها أربع زرافات لم يكن بيننا وبينها أكثر من مئة متر فوقفنا نتفرج عليها . وحدثتنى نفسى أن أرمى واحدة منها ، على أننى رأيت ألا لذة فى صيدها أو بالحرى قتلها على هذه المسافة ولا فائدة منها فلا نقدر أن نحمل لحمها ، ولا وقت عندنا لسلخها وأخذ جلدها هذا فضلا عن أن السردار أذن لنا فى صيد ما شئنا من الحيوان إلا الزراف والنعام فأطعت الأمر فى ما يتعلق بالزراف وخالفته فى صيد النعام كما سيجيء لأن الإنسان ضعيف الإرادة فى بعض الأحيان ويقدر أن يخفى ريش النعام أما جلد الزراف فكبير جداً ويصعب إخفاؤه .فتركنا الزرافات وشأنها وسرنا ، وإذا بأربعة تياتل قد اعترضت طريقنا فرميت واحداً منها وحملنا رأسه وشيئاً من لحمه إلى المعسكر والتيتل نوع من بقر الوحش كثير جداً فى تلك البلاد وكان أكثر صيدنا منه .

* * *

سرية اللادوا

وأخذ سباركس بك سرية من العساكر الذين كانوا فى التونج وسار بها جنوباً إلى أن بلغ كرو عاصمة اللاد وكانت تابعة لحكومة الكنغو ، فأحسن البلجيكيون وفادته وأكرموه غاية الإكرام ، ثم عاد ومن معه بحراً إلى مكان على ساحل النيل يقال له «شامبى» وسار فى البحر إلى التونج فبلغها فى أول أبريل . وحدث وهو عائد برجاله أن أحد العساكر انقطع عن رفقائه وجلس يستريح فى مكان لا تراه فيه الساقة فلما نزل الجنود للمقيل لم يجدوه بينهم فعاد جماعة منهم يفتشون عنه فوجدوه مقتولا طعناً بالحراب وقد ، أخذ القتلة ما عليه من أدوات النحاس كالأزرار والأبازيم وما أشبه ، وربما كان قتلهم إياه طمعاً فيها . فلما وصل سباركس بك إلى التونج أرسل البكباشى بلنوى ليقتص من القتلة فجمع البكباشى شيوخ تلك الناحية وطالبهم بدم القتيل فجاءوا بالقتلة وعرضوا عليه الديه فرفضها وعقد مجلساً عرفياً جعل الشيوخ من أعضائه فحكم المجلس على المتهمين بالقتل رمياً بالرصاص ، ولما جىء بهم لتنفيذ الحكم وجد أن أحدهم قد فر فنفذ الحكم فى الاثنين الباقين وأظن الثالث لا يزال هارباً .

وسار البكباشى جيمس من التونج إلى «واو» ومنها إلى الحصن الذى بناه مرشان على ثلاثة أميال منها وهو فى أحسن موقع هناك ، ثم بعد أيام احتلته جنودنا وجعلت حوله زريبة من الخشب والشوك ، وأخذت فى إقامة المنازل داخل الزريبة وأطلقنا على المكان اسم « واو » وهو الآن عاصمة البلاد وعامر بالسكان .

من مشرع الريك إلى التونج

وكنت لا أزال فى مشرع الريك والبكباشى بلنوى وأحمد كامل أفندى يسيران منه إلى التونج ذهاباً وإياباً ومعهم الدواب لنقل المؤونة والذخيرة ، فقال لى البكباشى بلنوى مرة لعلك سئمت الإقامة هنا فسآخذك معى هذه السفرة لترى البلاد ثم نعود معاً . فاتفقنا على ذلك وبقينا فى المشرع أياماً ننتظر وصول البريد وكان

قد مضى اثنان وخمسون يوماً على سفرنا من أم درمان لم نسمع فيها شيئاً عن العالم . ولما وصلت الباخرة التى تحمل البريد أخذنا رسائلنا وملأنا جيوبنا بها وسرنا للالتحاق بالعساكر والدواب . وكانوا قد سافروا قبلنا بليلة فكنا نقرأ ونحن سائرون لانبالى بالحفر التى نقع فيها أو الأشجار التى نصطدم بها . وبعد مسير عشرة أميال وصلنا إلى قرية «اللو» التى مر ذكرها فسألنا رجل رأيناه هناك أن يسير أمامنا يدلنا على الطريق فأسرع إلى بيته ثم خرج وعليه ثياب امرأة وسار أمامنا فقلنا له كيف جئت بهذه الثياب قال هى هدية من الإفرنج يريد بهم مرشان وجماعته ، ولعلهم أهدوها إلى امرأته فاغتصبها منها .

ولما كان المساء وصلنا إلى ماء رأينا الجنود قد نزلت عليه للمبيت فبتنا هناك ، ثم قمنا قبل طلوع الفجر وأخذنا فى المسير نحن والجنود والدواب إلى أن كانت الساعة التاسعة . فقال لنا الدليل إن أمامنا على مسير ساعة بركة ماء يكتنفها الشجر ويحسن بنا المقيل عليها . فقال لى البكباشى ليسبقنا الجنود والدواب ومعهم الباشجاويش ونقف هنا قليلا نأكل شيئاً ثم نلحق بهم . فجلسنا فى ظل شجرة وبقى معنا أحد الجنود واسمه عبد الرحمن فبعد أن أكلنا ودخن كل منا سيجارته سرنا لنلحق بالعساكر . فلم نكد نسير ساعة حتى رأينا غصناً أخضر ملقى على الطريق أمامنا فلم ننتبه إلى أنه إشارة معروفة فى تلك البلاد يراد بها أن لايجتازها السائر وكان الدليل قد وضع الغصن ليخبرنا أنهم مالوا عن الطريق إلى بركة الماء التى هناك .

ولما كنا نجهل هذه العلامة اجتزنا الغصن وبقينا سائرين ونحن لا نرى أثراً للعساكر ولم ندر أننا تركناهم وراءنا . وبعد مسير نحو ساعتين عثرنا على أحدهم واسمه محمد القفاص وكان تائها مثلنا لكنه كان فى أشد التعب وقد نفد الماء منه وكان معى فى راويتى بقية من الماء فسقيته قليلا وقلت له إياك أن تميل عن الطريق بل اجلس هنا فاما أن يمر بك العساكر إذا كانوا وراءنا أو نرسل من يأتى بك إذا اهتدينا إليهم . وبقينا نجد فى السير حتى اشتد الحر وبلغ بنا العطش مبلغه . فجلسنا فى ظل شجرة على مقربة من الطريق وإذا القصاص مقبل من بعيد يسير آونه ويجلس أخرى . فلما وصل إلينا انطرح فى ظل شجرة

وهو فى حالة يرثى لها من التعب والعطش وبعد أن أخذ نصيباً من الراحة قام ومشى فقلت له إلى أين قال « حابى » ثم اختفى وراء الشجر ولما لم يرجع قمت أفتش عنه فإذا به قد أخرج حربة بندقيته « السونكى » وأخذ يحفر بها فى الأرض فقلت ماذا تعمل قال أحفر لعلنى أجد ماء قلت قم لا ماء هنا . والمكان الذى حفر فيه جئت إليه بعد أيام وحفرت فيه بئراً عمقها ٤٢ قدماً دون أن أصل إلى الماء .

واشتد بنا العطش كثيراً وكانت الشمس قد أوشكت أن تغيب فحننت إلى جبل لبنان وتاقت نفسى إلى شربة ماء من نبع حين وهو يتدفق من تلك الحجارة البيضاء، فأخذت أصفه للبكباشى بلنوى وقلت حبذا شربة ماء منه أو على الأقل من السبلنددبا فى مصر ، هذا إذا لم نقل زجاجة مثلجة من مياه روسياك قال كفى فقد زدتنى عطشاً . ولم ينته من كلامه حتى رأينا الجنود مقبلين يتقدمهم حمارى وعليه قربتان من الماء العكر الآسن فكدت أن أنسى حنين وماءه البارد العذب . أما القصاص فشرب شربة لا أظنه ينساها .

الحراج فى بحر الغزال

ولا أسهل من أن يضل المسافر فى تلك البلاد فكلها سهول منبسطة لا يرى فيها أكمة قط لكن فى بعض الأماكن شيئاً من الهبوط والارتفاع فإذا نزل المطر اجتمع الماء فى الأماكن المطمئنة مصارت مستنقعات كبيرة جداً . ولا معالم تميز المكان الواحد عن الآخر فالأماكن كلها متشابهة والأرض مغطاة بالعشب والحراج كبيرة جداً وهى ملتفة الأشجار ضيقة المسالك يسير فيها المسافر أياماً بلا انقطاع . ويطول العشب فى فصل المطر حتى يبلغ أغصان الشجر فيختفى الفيل الكبير وراءه . لا يرى على بضع خطوات منه ومتى جاء فصل القيظ وهو فى تلك البلاد من شهر نوفمبر إلى شهر مارس جف العشب وأحرقه الناس أو احترق من نفسه باحتكاك الأغصان اليابسة بعضها على بعض وامتدت النار مئات من الأميال واحترق الحشيش كله ولم يبق غير الشجر . وقد كان سيرنا

هذه المرة فى فصل القيظ بعد احتراق العشب وكان العشب الجديد قد ارتفع قليلا فبلغ طوله فى بعض الأماكن نحو الذراع والشجر هناك ضروب وألوان لا يعرف لأكثرها أسماء عربية لكن بعضه ينبت فى بلاد العرب والسودان العربى كالطلح والسلم والهشاب . وغيرها من أنواع السنط وهى أشجار كبيرة شائكة من الفصيلة القرنية كان العرب يسمونها العضاة وهى كثيرة جداً فى السودان ولايزال عرب السودان يعرفونها بأسمائها العربية التى كثر الشعراء من ذكرها . منها الطلح الذى قال فيه المعرى :

وأبغضت فيك النخل والنخل يانع   وأعجبنى من حبلك الطلح والضال

الضال ضرب من السدر أما الطلح فأعظم العضاة المعروفة فى بلاد العرب له شوك ضخام طوال . ونور أصفر طيب الريح وفى السودان صنفان منه الأحمر والأبيض ومنها السمر وفيه يقول امرؤ القيس :

كأنى غداة البين حين تحملوا   لدى سمرات الحى ناقف حنظل

ومنها السلم ويصنع منه أهالى السودان عصياً عقفاء كثيراً ما نراهم يحملونها فى مصر وبه سمى ذو سلم فى الحجاز الذى قال فيه الشاعر :

وهل أراك على وادى الأراك وهل   يعود تسليمنا يوماً بذى سلم

ومنها القتاد ويقال له الهشاب فى السودان ويعرف منه صنفان فى بلاد العرب أحدهما شجر كبير شائك والآخر قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكاً وفى المثل . . من دون ذلك خرط القتاد .

ومنها السنط وهو أشهرها فى بلاد العرب وثمره القرظ يدبغ به لكثرة ما فيه من المادة العفصية وبه سمى القارظان وهما رجلان من عترة خرجا فى طلب القرظ فلم يرجعا فضرب بهما المثل فقالوا لا يأتيك أو يؤوب القارظ

ولا يزال أهالى السودان يدبغون بالقرظ ويخرجون لجمعه ويسمونه القرظ أو القرض ويستخرج الصمغ العربى المعروف بالأقاقيا من هذه الأشجار كلها وأجوده صمغ الهشاب ثم الطلح ثم السنط وقد كان القدماء يستخرجونه من السنط

فقط وله فى بلاد السودان تجارة واسعة وهو من أهم صادرات البلاد وللحكومة عناية كبيرة بأشجاره وقد سنت نظماً لحمايتها وبعض هذه الأشجار تنبت فى الشام لا سيما فى غور أريحا وهى السيال والسمر والطلح أما القتاد أو الهشاب فخاص باليمن والسودان المصرى والسودان الفرنسوى .

ومن أشجار بحر الغزال الحمر أو التمر الهندى وأهل السودان يتداوون به ويسمونه العرديب وكثيراً ما تألفه القرود وتأكل ثمره وهو معروف فى اليمن .

ومنها أشجار المطاط أى اللستك وهى أربعة أنواع فى تلك البلاد أحدها نوع من التين كبير جداً بين التين والجميز والتين الهندى يرسل من أغصانه عروقاً تنبت فى الأرض كما تنبت عروق التين الهندى وله ثمر يؤكل يشبه ثمر الجميز لكنه يخرج متفرقاً بين الأوراق كالتين لا عناقيد على الأغصان الكبيرة كالجميز والأنواع الأخرى من شجر المطاط لا أسماء عربية لها وهى عصبات أى أشجار متسلقة تنمو على غيرها من الشجر ويستخرج المطاط منها بأن تخرج بفأس ويلتقط ما ينزل منها من اللثى ويكون لثاها مائعاً عند نزوله ثم يجمد .

ومنها شجرة تعرف عند عرب السودان باللؤلؤ وهى من الأشجار التى يستخرج منها الكوتابرخا لها ثمر يؤكل يشبه التفاح فى طعمه لكنه ليس فى حلاوته داخله نوى يعصر منها زيت طيب الطعم كنا نفضله على كل الزيوت ما عدا زيت الزيتون وربما كان اللولو شجر الريكان الذى ذكره الدمشقى فى وصف بلد السودان فإن وصفه له يشبه وصف هذا الشجر .

والمرخ والعفار نوعان من الشجر يقتدح بها ولا يزال المرخ يعرف باسمه هذا فى السودان العربى وفى بلد العرب وغوراريحا وقد رأيت السود يخرجون النار منه كما تفعل العرب وطريقتهم فى ذلك لا تختلف عن طريقة هؤلاء قط وأحسن وصف لها رأيته فى كتاب بلوغ الأدب فى أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى من علماء بغداد خاصة كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى .

ومنها الأراك وهو شجر يستاك به أى تتخذ من فروعه وعروقه هذه المساويك لتنظيف الأسنان قال الشاعر :

تخـــير من نعمان عود أراكه　　　لهـــند ولكن من يبلغـــه هندا

أراد الشاعر بنعمان موضعا قرب مكة كثير الأراك يقال له نعمان الأراك قيل إنه من مواقف عرفه .

والأراك كثير جداً فى السودان ومصر و بلاد العرب وغوراريحا وهو من مراعى الإبل والماشية قيل إنه يجعل لبنها طيب الرائحة .

ومنها السدر وثمره النبق وهو شبيه بالعناب وكنا نأكله ويظن بعض الباحثين أنه اللوطس و به سميت قبيلة فى برقة زعم اليونان أن طعامها النبق فسموها لوظوفاغوى أى أكلة النبق . وقد ذكر هوميروس فى الأوذيسية أن عولس لما وصل إلى تلك البلاد وأكل رجاله النبق نسوا بلادهم وأبو العودة إليها وقد كان اليونان والرومان يزعمون أن أكل النبق ينس الإنسان أهله ووطنه . ويقال أيضاً إن إكليل الشوك الذى وضع على رأس المسيح كان من السدر لذلك يسميه الإفرنج شوك المسيح . والسدر كثير فى بلاد السودان كلها وفى مصر وفى بلاد العرب وغور الأردن إلى بانياس شمالا .

ومنها التنضب وهو نوع من الكبر (القبار فى الشام) له شوك وثمر مثل العنب يؤكل وهو أحمر التنضب كثير فى السودان والحجاز وغوراريحا فى مكان يعرف بسيسبان ويعرف فى هذه الأماكن كلها باسمه هذا .

ومنها الأهليلج السودانى والهيلج بلغة أهل السودان وهو شجر كبير شائك من فصيلة الأزادرخت له ثمر كالعنب أخضر شديد المرارة فإذا نضج اصفر لونه وصار فيه شىء من الحلاوة فيأكله السود إذا عضهم الجوع ويتداوون به من الحمى وفيه بعض الخواص التى فى الأهليلج الهندى المعروف عند الأطباء وينبت الأهليلج السودانى فى مصر وبلاد العرب وغوراريحا ويعرف فى فلسطين بالزقوم ويستخرج منه أهالى أريحا وهنا يقال له دهن الزقوم يتداوى به وزعم بعضهم أن بنى أمية غرسوا الأهليلج الكابلى فى فلسطين فتغير بطول الزمن وصار زقوماً . والحقيقة أن الزقوم أى الأهليلج السودانى خلاف الأهليلج المعروف عند الأطباء فهذا ثمر هندى يؤتى به من عدة أنواع من الشجر تنبت فى الهند وأفغانستان منها الأهليلج الكابلى الذى يؤكل الأهليلج الأسود المعروف عند عامتنا بالهندى شعيرى لكنه لشدة الشبه بين هذه الأثمار أطلق أهالى السودان اسم

الأهليلج على الزقوم وزعم بعضهم أن الزقوم هو الأهليلج الكابلى .

ومن أشجار بحر الغزال شجرة يسميها عرب السودان أم الشطور وهى من كبار الشجر يتدلى منها ثمر كثير جداً يشبه اللوف لكنه شديد الصلابة ربما شج رأس الإنسان أو سقط عليه . وفى حديقة الأزبكية شجرة منه مجلوبة من تلك البلاد يراها الداخل من الباب الجنوبى مقابل دار الأوبرا .

ومنها الأبنوس السودانى وهو كثير هناك . وضرب من الماهوغنى يسميه عرب السودان الحمراية والدليب وهو شبيه بالدوم . والعشر وهو نجم عريض الورق يحمل تفاخات كبيرة داخلها شىء كالحرير تحشى به الوسائد وهو كثير فى السودان ومصر وبلاد العرب وغواريحا وحيث يكون العشر والمرخ والدوم والدليب يكون الماء قريباً من سطح الأرض . والعشر يقتدح به كالمرخ وهما من فصيلة واحدة . وهو مشهور عند العرب كانوا يستمطرون به فى زمن الجاهلية فإذا احتبس الغيث ربطوا العشر ونبتاً آخر اسمه السلع بأذناب البقر وحدروها من الجبال وأشعلوا النار فى السلع والعشر ومنه قول الشاعر :

لا در در رجال خـــاب سعيهم　　　يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بيقورا مســـلعة　　　ذريعـــة لك بين الله والمطر

ومنها نوع من الغربيون أى اللبانة وهو شبيه بالصبر ينبت صعداً فى الهواء ويخرج منه لثى أبيض كاللبن إذا وضع على الجلد أحدث فيه التهاباً شديداً فيفرز السود سهامهم فيه فيسمها بما يعلق عليها من لثاها لكن سمه موضعى ومتى جف على النصال خف فعله كثيراً ومنها عود القنا وهو كثير جداً فى بعض الأماكن والجوغان وهو نوع من الأبنوس والزيتون وهو نوع من الساج أى خشب التلك وله ثمر يؤكل وغير ذلك من الأشجار المختلفة .

والحراج متسعة جداً وهى فى الأماكن أدغال مشتبكة الشجر يتعذر السير فيها . والطرق التى كنا نسير عليها ليست سوى مداعس ضيقة طرقتها أقدام السلة بين العشب والشجر لا تكاد ترى على بعد خطوات قليلة فإذا جاء المطر نبت فيها العشب أو محا السيل آثارها . وكان سيرنا هذه المرة سريعاً جداً فلم نصب

من الصيد إلا أربعة ثياتل . وبعد مسير سبعة أيام قطعنا فيها مئة وعشرين ميلا على أقدامنا وصلنا إلى التونج فنزلت فيها ضيفاً على صديقى الدكتور نجيب شديد .

أفراس النهر

وبقينا فى التونج أياماً قلائل طلباً للراحة ثم قفلنا عائدين إلى مشرع الريك ومعنا دواب النقل . وبعد أن قطعنا نحو ثلاثين ميلا وصلنا إلى نهر صغير يكاد أن يكون جافاً لكننا رأينا فيه بطيحة قد اجتمع فيها عدد كبير من أفراس النهر فوقفنا نتفرج عليها وهى تغطس فى الماء ثم تعود إلىسطحه وترفع رءوسها لاستنشاق الهواء وكانت الإناث حاملة صغارها على ظهورها ومنظرها من أجمل المناظر التى رأيناها فى تلك البلاد . ثم وقفنا على جرف رأينا تحته فرساً كبيراً تدل هيئته على أنه ذكر ولم يكن بيننا وبينه أكثر من خمسة عشر متراً فطلب منا الأهالى أن نقتله فقتلناها وتركناها فى الماء فنزلوا بعد انصرافنا وحملوه إلى البر وأخذوا لحمه .

وأفراس النهر كثيرة جداً فى تلك البلاد وقد كانت كثيرة فى مصر لكنها انقرضت منها منذ ثلاث مئة سنة قتل آخر واحد فى فرع دمياط سنة ١٦٠٠ ويندر أن يرى واحداً منها الآن شمالى الخرطوم .

ويظن بعض علماء التوراة أن فرس النهر هو البهيموت الذى ورد ذكره فى سفر أيوب قال « انظر إلى بهيموت الذى صنعته معك أنه يأكل الخضر مثل البقر . قوته فى متنيه وشدته فى عضل بطنه يشول بذنب كالأوز وأعصاب فخذيه مجبوكة . عظامه قضب من نحاس وغضاريفه حديد مطرق . فالجبال تخرج له الرتعة وحوله تلعب جميع الوحوش . يربض تحت السدر وفى ستر القصب فى المستنقع . يخيم عليه السدر بظله ويكتنفه صفصاف الوادى إن طغى عليه النهر لم يجفل . هو مطمئن ولو اندفق الأردن فى فيه (أيوب ٤٠ — ١٠ — ١٨) فهذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على فرس النهر الذى لا يزال حتى الآن يربض تحت السدر وراء القصب فى مستنقعات أواسط إفريقية ولا يستبعد أنه كان موجوداً

فى الأردن حيث يكثر السدر والقصب أو فى بحيرة الحولة كما أشار إلى ذلك الأب لامنس اليسوعى فى كتابه « تسريح الأبصار فى ما يحتوى لبنان من الآثار » أما وصف هذا الحيوان بكثرة أكل العشب فلا يعرف مقداره من الصحة إلا أهالى السودان فإنه إذا خرج ليلا على زرعهم أتلف الزرع فى فدان من الأرض أو كثر من ذلك وقد قيل لى أنه يأكل فى ليلة واحدة زراعة ربع فدان من الذرة .

وأهالى السودان يأكلون لحمه فإذا أظفروا بواحد منه وقتلوه ربطوه بحبل وجروه إلى ضفة النهر ثم قطعوا لحمه قددا وجففوه فى الشمس أو أضرموا النار وغرزوا خشبات حولها ونشروا القدد عليها ودخنوها . أما الجلد فثخين جداً يقدونه قطعاً طوالا ويصنعون منها هذه العصى والسياط التى يقال إنها مصنوعة من أذناب الفيلة وهى فى الحقيقة من جلد هذا الحيوان .

الأفيال

وبعد مسير أربعة أيام وصلنا إلى بركة ماء فنزلنا عليها للمقيل ولما مالت الشمس إلى المغيب أخذت بندقيتى وخرجت من المعسكر فى طلب الصيد إلى مكان مرتفع وقفت عليه وأخذت أجول ببصرى لعلى أرى صيداً فى السهل أمامى وإذا رجل من الأهالى قد جاء إلى وأخذ يشير بيده إلى غابة تبعد عنى نحواً خمسمائة متر فالتفتت وإذا بفيلان كبيران جداً يسيران الهوينا فلم أكد أصدق نظرى لشدة الفرح فأفهمت الرجل بالإشارة أن يسرع إلى المعسكر ويخبر البكباشى بلنوى وبقيت واقفاً أرقب الفيلين حتى اختفيا وراء الشجر . ولم تكن إلا بضع دقائق حتى جاء البكباشى مسرعاً ومعه المستر سيرس الجاويش الإنكليزى فمشينا نحن الثلاثة إلى الجهة التى سار فيها الفيلان فرأيناهما قد نزلا فى خور يشربان ويغتسلان وكانت الشمس قد غابت فأخذنا نزحف على بطوننا حتى صرنا على ثلاثين متراً منهما ولم يمكننا التقدم أكثر من ذلك لأنه لم يبق شىء بيننا وبينهما نستتر وراءه . ثم جلسنا نستريح واتفقنا أنه إذا هجم الفيلان علينا لا نحاول ردهما بل يختبئ كل منا فى أى مكان يراه موافقاً . ولا سبيل للنجاة من الفيل

إذا هجم إلا بهذه الطريقة لأنه قصير البصر جداً لكنه قوى الشم متى كان تحت الريح أما سيره فأسرع من سير الإنسان كثيراً . ولا يمكن رده بإطلاق الرصاص عليه مواجهة ما لم يصبه الرصاص فى ركبته ويصعب ذلك فى مكان كثير العشب لأن ركبة الفيل لا تعلو كثيراً عن الأرض فيخفيها العشب ثم انتقينا أكبر الفيلين وقال لى البكباشى لِنَصُوب بنادقنا نحن الثلاثة جاعلين غرضنا من الفيل بين صماخ أذنه وعينيه واضرب أنت أولا لأنك صاحب الصيد ونحن نتبعك قلت لا بل أضرب أنت أولا لأنك أسد رماية منى وغايتنا قتل هذا الفيل فاتفقنا على ذلك وأطلقنا الرصاص ثلاث دفعات أى أن كل واحد منا رماه بثلاث رصاصات فرفع الفيل خرطومه وأخذ ينظر إلى الجهة التى سمع الصوت منها ثم حول وجهه وولى هارباً لا يلوى على شىء ودخل أجمة فى الجانب الآخر من الخور واختفى فيها وتبعه الفيل الآخر . ثم سمعنا صوتاً عن شمالنا كصوت الأبواق فالتفتنا وإذا قطيع من الأفيال يبلغ عددها نحو الثلاثين وهى رافعة خراطيمها فوق رؤوسها ومسرعة إلى الغابة . وكان الظلام قد خيم فعدنا خائبين ولا أدرى أينا كان أشدنا غيظاً وقد توسلت إلى البكباشى بلنوى أن نبقى هناك إلى اليوم التالى ونقتفى أثر الفيل ونجهز عليه إذا كان لم يزل حياً فأبى وقال إن بقاءنا هناك يؤخرنا عن الوصول إلى المشرع فلا تصل المؤونة إلى التونج فى الوقت المعين قلت دعنى أبقى أنا وحدى قال أنا المسؤول عن سلامتك ولا أقدر أن أسمح لك بالبقاء . ولم يكن البكباشى بانوى أقل منى أسفاً لضياع هذا الفيل لكنه على شدة ولعه بالصيد كان يرى أن إيصال حمل واحد من المؤونة إلى التونج أهم كثيراً من صيد عشرة أفيال . وقد لقيت كثيرين من الضباط ذوى النشاط والهمة لكننى لم أر مثل البكباشى بانوى فى صدق حذوته وشدة غيرته على مصلحة الحكومة وتفانيه فى قضاء الواجب إلى أن مضى لسبيله مع من مضى من رفقاء تلك الرحلة .

ووصلنا بعد يومين إلى بركة ماء فنزلنا عليها وكان الحر شديداً فجاست فى ظل شجرة على حافة الماء ثم جاء أحمد كامل أفندى وجلس معى ووضعنا أمتعتنا هناك ونمنا فلما مضى هزيع من الليل جاء محمد أفندى أمين وأيقظنى

وقال قم وانظر فقمت وإذا فيلان هائلان فى البركة أمامنا لا يبعدان عنا أكثر من عشرين متراً ، وأراد أمين أفندى أن يوقظ كامل أفندى فقلت له دعه نائماً لأنه تعب جداً اليوم ووقفنا ننظر إلى الفيلين بقدر ما يسمح لنا ظلام الليل وكانا يشربان . ثم أخذا يخوضان الماء كأنهما يريدان الانصراف أو التقدم إلى جهتنا فخفت أن يمر من المكان الذى كان كامل أفندى نائماً فيه فأيقظته وأخذت بندقيتى وذهبت إلى المكان الذى كان فيه البكباشى بلنوى فرأيته واقفاً وبندقيته فى يده فقلت له ما رأيك قال ليس من الصواب أن نطلق الرصاص عليهما فى هذا الظلام الدامس وأخاف أننا إذا فعلنا ودخل فيل منهما بين العساكر واختلط الحابل بالنابل أن يصيب العساكر بعضهم بعضاً أو يعثر أحد الفيلين بجندى نائم فيقتله . فتركناهما وشأنهما وهما لا يباليان بلغط العساكر وكانوا قد استيقظوا من نومهم فشربا حتى ارتويا ثم انصرفا آمنين .

وربما كان بعض الكلام فى وصف الفيل الأفريقى لا يخلو من فائدة فى هذا المقام فلايخفى أن الفيل نوعان هندى وأفريقى وأكثر الفيلة التى نراها فى حدائق الحيوان هندية . والفرق بين الاثنين أن الهندى أصغر جثة وأكثر ذكاء من الأفريقى . وهو ألين عريكة وأسهل انقياد أما الأفريقى فشرس جداً وأصعب مراساً وأكبر جثة يبلغ علو الكبير منه اثنى عشرة قدماً عند كتفيه .

ويختلف الأفريقى عن الهندى أيضاً بكبر الأذنين وطول النابين وضخامتهما ففى المتحف البريطانى ناب فيل أفريقى طولها عشر أقدام وعقدتان ووزنها ٢٢٦ ليبرة وأظنها إحدى النابين اللتين ذكرتهما فيما سبق . وفيه ناب فيل هندى طولها ثمانى أقدام وتسع عقد ووزنها ٩٠ ليبرة وهى أطول الأنياب الهندية هذه أهم الفروق بين الفيلين الأفريقى والهندى . وقد كان القدماء يذللون الفيل الأفريقى ويقاتلون به كما كان الهنود يقاتلون بالفيل الهندى فكان البطالسه يأتون بالأفيال من شرق أفريقية وقد قاتل بها القرطاجنيون فى حروبهم المشهورة مع الرومانيين وآخر من حاول إذلال الفيل الأفريقى إسماعيل باشا الخديوى الأسبق فإنه أرسل فيلين من الأفيال الهندية إلى الإسماعيلية المعروفة الآن بقوندوكورو وذلك لعليم الأفيال الأفريقية وتربيتها ووصلنا إلى مشرع الريك

فى الثامن من شهر فبراير ووصلت الباخرة التى تحمل البريد من أم درمان فى اليوم نفسه فأخذت رسائلى وجلست فى خيمتى أقرأها وكان فى المحطة علمان مرفوعان دائماً وهما العلم العثمانى والعلم الإنكليزى فألتفت وإذا بالبكباشى بلنوى يخفضهما فسألت عن الخبر فقيل لى إن البريد جاء ينعى الملكة فكتوريا وكانت وفاتها فى الثانى والعشرين من شهر يناير فلم نعلم بها إلا بعد مضى سبعة عشر يوماً .

واتفق بعد وصولنا إلى مشرع الريك ببضعة أيام أن جماعة من السود وجدوا فيلا ميتا فأكلوا لحمه وحملوا نابيه إلى المشرع يريدون بيعها وكان اللحم لايزال عليهما فقال لى أحد الضباط لعل هذا الفيل فيلكم الذى رميتموه بالأمس فسألت الجماعة فقالوا إنهم عثروا عليه فى مكان لا يبعد كثيراً عن المكان الذى رميناه فيه ثم عادوا وقالوا إنهم وجدوا حربة مكسورة فى بطنه ثم أنكروا ذلك وادعوا أنه صيدهم . ورأيت من العبث أن أقف منهم على الحقيقة فحاولت أن أفهمهم أن الخلاف ليس بيننا وبينهم بل بيننا وبين الحكومة فإذا كان هذا الفيل صيدنا أمكننا أن نشترى النابين منهم بالثمن الذى نتفق عليه وإذا كان صيدهم اشترتهما الحكومة ولم نستطع نحن أن نشتريهما . ثم رأى البكباشى بلنوى أن الأدلة عندنا تثبت أن الفيل فيلنا فاشترى النابين للحكومة ودفع الثمن خرزاً ونحاساً وأنسجة وكان وزنهما ١٨٠ ليبرة وثمنهما فى أم درمان نحو ٩٠ جنيهاً .

فصل الجفاف وكثرة الصيد والضباع

وكان فصل الجفاف قد بلغ أشده ونحن فى شهر فبراير فنضبت المياه فى الآبار والغدران والمستنقعات الصغيرة وصارت الحيوانات تأتى إلى الأنهار لترد الماء فكثر الصيد فى مشرع الريك وكانت الشياتل تختلط بالحمير وهى ترعى خارج المعسكر فكنا نصيدها على أهون سبيل وهى آمنة ودخل مرة قطيع منها إلى جزيرة متصلة بالبر فرميت أربعة منها قبل أن وجدت منفذاً تخرج منه وكان وزن الكبير منها مئة أقة . وكنت مرة مع أحد الضباط فرمى ثيتلا أصابه الرصاص

فى إحدى قوائمه وكان من النوع المعروف بالدمدم فسحقها سحقاً وفر الثيتل ولم نقف له على أثر وظننا أنه لا يعود إلى تلك الناحية مهما بلغ منه العطش ولا يرى وجهه لأحد من البيض لكن لم يمض على ذلك شهر حتى رأيناه مقبلا إلى المشرع وهو يخمع فى مشيه ووراءه اثنتان من زوجان وكانت الحمير ترعى خارج المعسكر فدخل بينهما فرميته فسقط وإذا هو بالتيتل الذى جرحناه بالأمس وكان عظمه قد جبر ساقه قد ضمدت لقلة الاستعمال .

وكثرت الضباع حولنا فكانت تقتحم المعسكر ليلا وتأكل ما تعثر عليه وقد أكلت مرة حبلا من الجلد وعظاماً جافة وورقة من جلد الجاموس اختطفتها من خيمتى . ولا أدرى أيها أكثر عدداً وأشد وقاحة وأكلب على الجوع أضباع كسلا أم ضباع مشرع الريك . وقد كان لضباع كسلا ناد قرب منازلنا تجتمع فيه معظم الليالى وتحرمنا لذة النوم لا سيما إذا عثرت على بعض العظام واشتد اللجاج والنزاع بينهما بسببها .

والضبع فى السودان نوعان الضبع المخططة وهى عرفاء ومثل الضبع الأسيوية تماماً والضبع الرقطاء وهى أكبر جثة ولا عرف لها وكلتاهما على جانب عظيم من الجبن .

حفر الآبار

وطلب منى البكباشى بلنوى أن أتعهد الآبار التى بين مشرع الريك والتونج وأنزحها حيناً بعد آخر وأحفر آباراً جديدة فى بعض الأماكن فكنت أستصحب معى كل مرة جماعة من العساكر وأغيب بضعة أيام وأعود إلى المعسكر ولم يكن فيه من المرضى ما يوجب بقائى فيه دائماً . ونزلت مرة على بئر وكان هناك رجل من السود معه قطيع من الغنم فقلت له بعنى خروفاً فقال أنا فقير لا أملك شيئاً قلت لمن هذه الخرفان إذاً قال هى لرجل ذهب فى حاجة وقد تركها هنا فقلت هل لك أن تسير معنا وتدلنا على البركة التى أمامنا وتأخذ أجرتك فالتفت إلى قطيع الغنم وقال لا أقدر أن أترك غنمى وأسير معكم ثم انتبه لنفسه وضحك إما أن تبيعنا خروفاً أو تسير معنا ففضل السير معنا وأوصى

امرأته بخرفانه فى غيابنا .

وأسرينا تلك الليلة حتى وصلنا إلى بركة الماء وهى فى مكان يقال له مركوك فأخذت أحفر بئراً فى مكان غير بعيد عنها وكان الماء فى البركة قليلا جداً والغنم والماشية ترده كل يوم وأقرب ماء بعده يبعد نحو خمسة عشر ميلا فخفت أن يجف الماء فى البركة قبل الانتهاء من حفر البئر فقلت لكبير القوم النازلين هناك وكان شيخاً هرماً كم يكفيكم الماء الذى فى البركة قال يومين أو ثلاثة قلت ماذا تفعلون بعد ذلك قال نرحل إلى مكان آخر قلت هذا الماء يكفى العساكر الذين معى أسبوعين ونحن نحفر بئراً لنستقى منها وتستقوا أنتم السنة كلها فحبذا لو ارتحلتم الآن وتركتم الماء لنا وحدنا فإنكم راحلون لا محالة بعد ثلاثة أيام على الأكثر . قال الماء لنا ولأجدادنا من قبل ولا نتركه . قلت نحن لا ننازعكم ملككم قال بلى ويظهر لى أنكم لا تختلفون عن النخاسين الذين كانوا يغزون بلادنا قبلكم قلت نحن فى بلادكم منذ ثلاثة أشهر ولم يعتد أحد منا عليكم وقد جئنا إلى هذه البلاد لإصلاح حالكم ورفع الظلم عنكم ومنع الغزو بينكم فلا يقتل بعضكم بعضاً ألا ترى فرقاً بيننا وبين النخاسين . قال نحن فى غنى عنكم وعن إصلاحكم المزعوم فقد عشنا فى هذه البلاد التى عاش فيها أجدادنا قبلنا وهم يغزون بعضهم بعضاً ويقتتلون فاتركونا وشأننا ولا رغبة لنا فيكم . ثم أخذ يرتعش وقال أتعلم أن طربوشك الأحمر هذا مصبوغ بدم أولادى . فقلت فى نفسى من يدرى المصائب التى توالت على هذا الرجل وهو مقيم فى هذا المكان على طريق القوافل بين مشرع الريك وداخل البلاد فأخذت ألاطفه وأغريه حتى أقنعته أننا لم نأت للقتل والنهب وقلت له إن الماء له فإذا شاء بقى وإذا شاء ارتحل واتفقنا أنه يرتحل بقومه وغنمه وماشيته فى اليوم التالى بعد ورود الماء .

مرض الأينهم

ومر بنا ونحن هناك أحد المهاجرين الذين قدموا معنا من أم درمان وكان معه رجلان فلما رآنى قال كنت مسافراً إلى مشرع الريك لأريك ابن عمى

وأظنه مصاباً بالجذام وقد جئت بهذا الحروف هدية إليك قلت أنت أحق مني بالهدية لأنك قد أريتني مرضاً لم أره قبلا . وكان الرجل مصاباً بداء خاص بالسود يقال له « الأينهم » ولم أره إلا في هذا الرجل وفي رجل آخر في كسلا وهو اختناق في أصابع القدم وأكثر ما يصيب الخنصر في قدم واحدة أو في القدمين معاً ثم تسقط الإصبع بعد زمن ويعقبه اختناق وسقوط في أصبع أخرى وربما امتد إلى المشط وسائر أجزاء القدم وهو شبيه جداً بالجزام لكنه على الراجح داء آخر ولا تزال أسبابه مجهولة وقد روى الدكتور ده برن من أساتذة المدرسة الطبية الفرنسوية في بيروت أنه رأى إصابتين في المستوصف الفرنسوي في بيروت وهي أول مرة عثر عليه بين البيض في ما أعلم .

الذباب والأمراض التي ينقلها

ذكرت أنه كان معنا عند وصولنا إلى بحر الغزال سبعة وثمانون حماراً وسبعة بغال وحصان واحد أما الحصان فمات بعد وصولنا ببضعة أيام ثم أخذت الحمير تموت الواحد بعد الآخر حتى فنيت كلها قبل مضي ستة أشهر وسبب موتها داء يصيب الحيوانات في تلك البلاد يقال له مرض البهائم وهو حقيقة أكثر من داء واحد سببه احياء صغيرة شبيهة بالأحياء التي تسبب داء النوم في الإنسان. وهذه الأمراض ليست خاصة ببحر الغزال بل منتشرة في أكثر أنحاء السودان وفي جنوب أفريقيا وفي الجزائر حيث تصاب الإبل بمرض يقال له داء الذباب ولا يزال بعض هذه الأمراض غامضاً والحكومة مهتمة بها اهتماماً كبيراً وتسمى الأحياء التي تسببها تريبانوساماى الثاقبة للجسم في داء النوم سببه نوع منها وينقله نوع من الذباب يعرف بذباب داء النوم ولم نعثر عليه مدة إقامتنا هناك على أنه عثر عليه بعد ذلك في بعض أنحاء بحر الغزال وحدثت إصابات بداء النوم في الجهات الغربية والجنوبية منه . وهناك نوع آخر من الذباب يعرف بذباب مرض البهائم هو شبيه بذباب داء النوم وأكثر منه انتشاراً وينقل مرض من الأمراض التي تصيب الماشية والدواب وربما نقل داء النوم أيضاً ومنها ذباب أيضاً يعرف بالسروت والشعراء وهو أنواع كثيرة لسعه مؤلم جداً وينقل بعض الأمراض إلى الإبل والدواب.

فى عرين الأسد

وتركت الجنود فى مركوك يحفرون البئر وعدت إلى المشرع وكنت أتفقدهم حيناً بعد آخر واتفق مرة وأنا هناك أن البكباشى هيمس مر بى فى طريقه إلى المشرع فقال مالى أراك هنا قلت أحفر بئراً قال هل وجدت ماء قلت لا قال دع البئر وشأنها وعد معى إلى المشرع قلت هذا ما أتمناه وجلسنا نتحدث فقلت له هل صدت الفيل فى هذه الرحلة قال لا قلت هل لقيت الأسد قال نعم وقد قتلت لبوة وهاك جلدها على الحمار ثم أخذ يقص علىّ كيف اصطادها فقال أقمت بضعة أيام فى واد وكانت الأسود تزأر كل ليلة وقت العشاء على مقربة منا والنهر بيننا وبينها فعبرت النهر يوماً وصنعت عرزالا فى شجرة هناك وكنت أذهب كل يوم نحو الغروب وأربط جدياً بجزع الشجرة وأجلس فى العرزال إلى منتصف الليل فلم أكن أسمع إلا ثغاء الجدى وزئير الأسود وهى لاتخرج من الأجمة لافتراسه فعدلت عن هذه الطريقة وتركت جماعة يترصدون الأسود نهاراً فجاءوا مرة وأخبرونى أن لبوة صادت بقرة وحشية من النوع المعروف بأبى عرف وحملتها إلى الأجمة وكانت الأجمة كثيفة مشتبكة لا يمكن الدخول إليها من مكان ضيق جداً وهو المكان الذى دخلت منه اللبوة فدخلت منه زحفاً على بطنى ولم أكد أدخل حتى خرج أسد من ورائى لكننى لم أره بل رآه الرجال الواقفون خارج الأجمة ولم أزل أتقدم حتى وصلت وسط الأجمة وإذا اللبوة فوق فريستها فلما رأتنى زمجرت ووثبت على وثبة واحدة ولم تكن المسافة بيننا أكثر من خمس عشرة قدماً فرميتها بالرصاص قبل أن تصل إلى فسقطت أمامى فهززتها برأس البندقية وكان لم يزل فيها طاقة أخرى فإذا هى ميتة لأن الرصاص أصابها فى جبهتها . ثم ناديت الجماعة فدخلوا وحملوها خارج الأجمة وأخرجوا البقرة الوحشية وأكلوا لحمها وهاك رأسها على الحمار مع جلد اللبوة . فلما انتهى من كلامه قلت له لقد اقتحمت الأسد فى عرينه واستخلصت فريسته

منه وهذا يذكرنى بأحد أمراء العرب وقد هاج الأسد عن فريسته فهجم عليه الأسد فضربه بالسوط :

أمعفــر الليث الهزبر بســوطه لمن ادخرت الصــارم المصقولا

وترجمت له البيت فأعجبه كثيراً وقال الشعر حسن جداً لكن فيه شيء من المبالغة ولا أصدق أن هذا الأمير الذى تذكره ضرب الأسد بالسوط ، قلت كان الجيش محيطاً وأنقذه منه ثم رويت له بعض أبيات بشر بن أبى عوانة فى الأسد . ومنها قوله :

وأطلقت المهند من يمينى فقد له من الأضلاع عشرا

وقلت له إن بشراً قتله بالسيف قال إنى أصدق ذلك فإن كثيرين من عرب السودان يقاتلون الأسد بالسيف ويقتلونه لكن ضربه صاحبكم بالسيف طولا أو عرضاً حتى قد له عشر أضلاع قلت أظن القافية حكمت عليه فجعل الأضلاع عشراً .

أما عرب السودان فكثيراً ما يقتحمون الأسد بالسيف والدرقة فقط وبعض الفتيات من عرب كردفان لا تتزوج الواحد منهن شاباً ما لم يقتل فيلا أو أسداً أو جاموساً بالسيف أو بالحربة . ولا أدرى أى الحيوانات أشد خطراً على الإنسان الفيل أم الأسد أم النمر أم الجاموس وربما كان الجاموس أشدها فتكاً . فالثلاثة الأولى تهرب من الإنسان فى غالب الأحيان أما الجاموس فقلما يهرب وإذا رأى إنساناً هجم عليه حالا سواء اعتدى عليه الإنسان أو لم يعتد . ثم قص على حكاية أخرى عن الأسود قال : كنت سائراً بين واو والتونج فلقيت أسداً ولبوة على الطريق أمامى فرميت الأسد وجرحته فهجم على فأطلقت عليه رصاصة أخرى أصابته لكنها لم تصده عنى ولم يكن فى بندقيتى رصاصة غيرها وتعذر على أن أحشوها لأن الأسد كان قد دنا منى كثيراً فوقفت فى مكانى لا أتحرك وأخذت أتفرس فيه فوقف ينظر إلى وأنا جامد فى مكانى ثم التفت يمنة ويسرة وتحول عنى وسار فى سبيله . وكانت اللبوة واقفة تنظر إلينا فلما رأت الأسد

قد تركنى أخذت تزمجر كأنها غضبت منه لتركه اياى تقدمت الى وكنت لا أزال واقفاً لا أتحرك فلما دنت منى وقفت كما وقف الأسد ثم تركتنى ومضت . وبلغنى بعد ذلك أن سباركس بك طلب منه أن لا يروى للضباط قصة دخوله عرين الأسد لئلا يقتدوا به ويصاب أحدهم بسوء .

هذا شىء يسير عن بسالة البكباشى هيمس فإن نوادره من هذا القبيل كثيرة جداً منها عبوره نهر الجور سباحة وهو يجر فيلا وراءه والنهر حافل بالتماسيح وقتله الفيل على عشر خطوات منه ووراءه فيل آخر يكاد يلمسه بخرطومه ووقوفه فى وجه العدو وحده . لم يرجع خطوة واحدة بل وقف يقاتل حتى سقط فى مكانه — الشجعان كثيرون ولكننى لم ألق فتى اجتمع فيه من محاسن الخلق والخلق ما اجتمع فى هذا الشاب فقد كان جميل الطلعة رضى الأخلاق لين العريكة رحب الصدر أنيس المحضر عزيز النفس حليما صبوراً جلوداً جريئاً مقداماً . لا أظنه أساء إلى أحد فى حياته بل كان كثير الاهتمام براحة الآخرين ومساعدتهم ويؤثر غيره على نفسه . مرض الأمباشى إبراهيم الزنكلونى من القسم الطبى فى واو واشتدت عليه الحمى فقال حبذا لو رأيت أمى قبل موتى فعمل له كرسياً وجاء باثنى عشر رجلا حملوه ثلاثة عشر يوماً من واو إلى مشروع الريك لكنه توفى هناك قبل أن يركب الباخرة فسار فى جنازته هو وسباركس باشا وسائر الضباط .

هذه بعض الأخلاق التى جبل عليها . لكن صفاته المكتسبة لم تكن أقل منها فقد كان طبيباً حاذقاً وجراحاً ماهراً وكان يحسن نظم الشعر والتمثيل والركوب والرماية والسباحة ولعب الكرة والصولجان وغيرهما من الألعاب الرياضية التى تعد من محاسن الشباب .

لست خائفاً أن ينسب إلى بعض القراء المبالغة فى تعداد مناقب هذا الشاب لكننى أخشى أن يتهمنى الذين عرفوه بالتقصير لا بالإفراط ولطالما حدثتنى نفسى أن أكتب شيئاً عنه اعترافاً بفضله فإذا كتبت الآن أكون قد قمت ببعض ما يجب على .

العودة إلى المشرع وقلة العمل

وعدت مع البكباشي هيمس إلى مشرع الريك فأقام هناك أياماً ثم ارتحل إلى واو وقال لى بعد سفره حبذا لو سرت معى بعضة أيام نقضيها فى الحديث والصيد وتكون فى ضيافتى أنت وحمارك قلت وما شأن الحمار فى هذه الدعوة ، قال لحمل الزاد ، وإياك أن تأخذ معك شيئاً من الطعام أو الشراب ، بل ارسل إلىّ الحمار قبل سفرنا ، فأرسلته فحمله من الأطعمة ألواناً ومن الأشربة كل ما لذ وطاب وسرنا معاً ثلاثة أيام نصطاد ونأكل ونشرب ، فكان سيرنا نزهة لا سفراً ثم ودعته وعدت إلى المشرع وما فيه من الوحشة واستحوذ علينا الضجر هناك لقلة العمل وكان متوسط عدد المرضى فى المستشفى خمسة أو ستة ، والأمراض الغالبة الملاريا والدوسنتاريا وذات الرئة وكان المستشفى أربع خيم صغيرة من النوع الهندى المعروف بالجبلى ، وهى خيم مسنمة ذات سقفين بينهما مسافة قليلة وقد جعلت كذلك للوقاية من الحر وهى خفيفة الحمل لا يزيد وزن الواحدة منها هى وأعمدتها وأوتادها على ١٥٠ ليبرة أى ٥٤ أقة ويسهل نصبها وتقويضها وإذا كانت منصوبة فى أرض جافة صلبة لا تقوى الرياح على اقتلاعها وكانت الأدوات والعقاقير والأغذية الطبية فى صناديق صغيرة مرفوعة عن الأرض خوفاً من الأرضة وهى كثيرة جداً هناك .

المستر فل

وجاء المستر فل فى مساء أحد الأيام من بحر الجور لأخذ المؤونة للجنود الذين يعملون معه فى إزالة السد وكان قد مضى عليه نحو شهرين وهو مقيم فى باخرة بعيداً عن البر يكتنفه الماء والعشب من كل ناحية فصعدت إلى الباخرة لأراه فقال لى اجلس فقد مضى علىّ زمن لم أحادث فيه أحداً فجلست ولم أكن أقل سآمة منه فأخذنا نتسامر على ظهر الباخرة حتى لاح الفجر فانصرف كل

منا إلى فراشه. وكان المستر فل هذا من رجال البحرية الإنكليزية برتبة ملازم فاستقال منها بعد انتهاء هذه التجريدة وعين فى حكومة السودان برتبة البكباشى ثم رقى إلى رتبة قائمقام وقد شهد بعض الوقائع فى بلاد النمانم ثم توفى فى بحر الغزال مأسوفاً عليه من جميع عارفيه لما جبل عليه من اللطف وكرم الأخلاق وما أتاه من الأعمال فى تلك البلاد كإزالة السد فى أعالى النيل ونواصره وتعيين العرض والطول لأكثر المواقع .

بداءة فصل المطر

وبدأ فصل المطر فى شهر مارس وأخذت الحمى والملاريا تصيبنا الواحد بعد الآخر فلم ينج منها أحد من البيض لكنها لم تكن شديدة الوطأة فى أول الأمر وأخذت الطيور والقواقع تمر بنا فى انتقالها فمر بنا فى أحد الأيام سرب من الحواصل لا يحصى عدده فنزلت هناك وغطت النهر والغيران والمستنقعات وكان الماء فيها ضحضاحاً فأخذت تصيد السمك على مرأى منا لا تكاد تنجو سمكة منها ، وقد تركت كثيراً من السمك الميت مما لم تقدر على حمله فى حواصلها لكبره فجاء النساء وجمعنه وصدت ثلاثة طيور كبيرة منها بلغ وزن الواحد عشر أقات وكان فى حوصلة أحدها سمكة حية وزنها ٥٠٠ درهم وبقيت الطيور هناك يوماً كاملا صارت فيه من السمك ما شاءت ثم ملأت حواصلها به ليكون زادها فى السفر وارتحلت ورأيت هناك نوعاً من القلق يعرف عند عرب السودان بأبى سعن سمى بذلك لكيس متدل من عنقه كالسعن أى الجراب وهو قبيح المنظر لكن تحت أصل ذنبه ريش أبيض ناعم جداً يزين به الرجال رؤوسهم فى تلك البلاد وقد اقتدت بهم نساؤنا فاتخذنه للزينة وهو الطائر المعروف عند الإفرنج بالمرابو وصيده ممنوع فى السودان ، وكثر البط والأوز والقطا والقمرى فكنا نصيد هذه الطيور ونحن جالسون أمام خيامنا .

نفاد التبغ

ونفد منا السكر والبن والتبغ وتأخر وصول البريد فاستعضنا عن البن بالشاى وعن السكر بالعسل وأقراص السكرين . أما التبغ فلم يغننا شيء عنه وتوالت عليّ رسائل صديقى الدكتور نجيب شديد من التونج يطلب فيها أن أرسل إليه شيئاً من التبغ أو السكاير وهو يظن أننى فى نعيم من التبغ أتمرغ فى سكاير جنكليس ولا يدرى أننى كنت فى ضيق أشد من الضيق الذى كان فيه ثم وصلت الباخرة بعد أيام وعليها ألف سيكارة لى فأرسلت إليه بعضها مع كامل أفندى وأقسمت عليه أن يصفه لى بعد عودته وهو يدخن سيكارته الأولى ولا أدرى أينا كان أشد ولعاً بالتدخين من الآخر .

المسير إلى واو

وبقيت فى مشرع الريك ستة أشهر كأننى فى سجن فأرسلت كتاباً إلى البكباشى هيمس قلت له فيه إننى لم أعد أطيق الإقامة هناك فكتب إليّ يقول إنه مسافر مع سباركس بك إلى بلاد النمانم وطلب منى المجيء إلى واو لاستلام أشغاله فى غيبته وأرسل البكباشى بلنوى كتاباً آخر طلب فيه من قائد المشرع أن يرسل معى عشرين حماراً محملة مؤونة وسبعة عشر جندياً لحراستها فقلت فى نفسى لقد ارتقيت من حفر الآبار إلى قيادة الحمير وسرت من المشرع فى الثانى من شهر يونيو وكانت الحمير محملة ذرة ودقيقاً وبقسماطاً ، الذرة فى أكياس من الخيش ، والدقيق والبقسماط فى أكياس من نسيج الكتيم الذى لا ينفذه الماء ، فقطعنا أربعين ميلا فى الأيام الثلاثة الأولى وكان سيرنا صعباً جداً لأن الدواب كانت مثقلة بالأحمال وهى هزيلة منهوكة القوى بسبب المرض والتعب ، وكان البكباشى بلنوى قد ألح عليّ بسرعة السير لأن الجنود كانوا فى أشد الحاجة إلى المؤونة فى واو . وكان فصل المطر قد بلغ منتهى الشدة والسيول قد غمرت

الطرق فى بعض الأماكن ، وفى اليوم الثالث عصفت رياح شديدة ثم اكفهرت السماء وقصفت الرعود وهطل مطر غزير لم أر مثله فى الشدة وكان ذلك أول عهدى بالأمطار الاستوائية فإنه قد يقع من المطر فى ساعة واحدة هناك قدر ما يقع فى يوم أو أكثر من يوم فى مكان مثل بيروت . ثم جرت السيول وغمرت الأرض أمامنا فكنا لا ندرى أين الطريق ولاحت لى قرية عن بعد فأسرعت بالدواب إلى أقرب بيت منا فرأيت فيه جماعة من السود جالسين حول النار فأنزلت الأحمال وأويت الحمير . وكنا قد رأينا قطيعاً من الثياتل قبل وصولنا إلى القرية فرجعت إليه وصدت ثيتلا منه فجاء العساكر وحملوه إلى القرية وبتنا ليلتنا هناك .

غرق الحمير فى الطين

ولما نهضنا للسير فى اليوم التالى وجدنا أحد الحمير قد رزح من التعب والمرض فأطعمت الحمير الأخرى ما عليه من الذرة وتركته عند الأهالى وطلبت منهم أن يعيدوه إلى المشرع متى قوى على السير فلحق بى رجل بعد يومين ومعه حافر من حوافره دليلا على موته . وكان سيرنا فى هذا اليوم أصعب من سيرنا فى اليوم الذى قبله لكثرة الماء والطين وكان السيل قد محا آثار الطريق فصارت الحمير ترتطم فى الطين فتغرق أحيانا إلى بطونها فننتشلها منه . ومررنا قرب بيت فخرج منه رجل وقال إنكم تائهون عن الطريق وسار أمامنا يدلنا عليها فعجبت لهذه المروءة التى لم أعهدها فى الدنكا وقلت لعل وراء الأكمة ما وراءها ولم نكد نسير غلوة حتى أخذت الحمير ترتطم فى الطين فقلت للرجل قد كنا سائرين على طريق أفضل من هذه وأقرب وعلمت من هيئته أنه خدعنا حتى لا نمر فى زرع له هناك فلما درى أن أمره قد افتضح أعطى ساقيه للريح .

الكوجور أى الساحر

وكان اليوم الخامس شديد الحر جداً والطريق التى سرنا عليها جافة لا ماء فيها وتعبت الدواب كثيراً فتركت الجنود معها يسيرون على مهل وأخذت غلاماً

كان يحمل بندقيتي وراويتي وسبقتهم أفتش عن مكان فيه ماء ننزل عليه وكان الغلام لا يفهم من العربية إلا كلمات قليلة ، ولاح لي بيت وجهت خطواتي إليه فرأيت هناك رجلا يعمل في مزرعة فقلت له « فيو » ومعناها الماء بلغة الدنكا فلم يرد عليّ فكلمه الغلام بلغته وطلب منه أن يدلنا على الماء فقال « ألو » وهي أداة النفي عندهم ولطالما سمعتها منهم فكنا مهما طلبنا من الواحدمنهم يقول « ألو » فقلت للغلام قل له أن يدلنا على الماء ويأخذ أجرته فقال له قم دلنا على الماء فلم يتحرك فكلمته مغضباً وقلت له قُم أرنا الماء فاحمرت عيناه ونهض واقفاً وكان في يده اليسرى حربة وفي اليمنى دبُّوس ضخم فهجم عليّ ورفع دبوسه فوق رأسي وأخذ يرغي ويزيد ويتكلم بكلام لم أفهمه وأظنه كان يصب لعناته عليّ وكانت هيئته تدل على شدة غيظه مني وهو يهز دبوسه كأنه يريد أن يهوى به علىرأسي فقلت في نفسي لعل الرجل معتوه أو ربما ظنني وحدي ورآني أعزل فأحب أن ينتقم من الجنس الأبيض وهممت أن أضع يدي وراء ظهري وآخذ البندقية من الغلام فإنني كنت إذا رأيت صيداً أضع يدي وراء ظهري فيناولني البندقية من غير أن أكلمه لكنني خشيت أنني إذا فعلت ذلك زاد هياج الرجل واضطررت أن أقتله دفاعاً عن نفسي فبقيت واقفاً أنظر إليه وقلت للغلام ماذا يريد هذا الرجل وماذا يقول ؟ قال « كوجور » قلت ما معنى كوجور قال كوجور ، فوقعت في حيرة لا أدري أأقتل هذا الرجل دفاعا عن نفسي أم أبقى تحت رحمة دبوسه فإنه لم يكن بيدي غير عصا صغيرة قد لا تقيني من ضربة الدبوس إذا نزل على رأسي ، وإذا امرأة خرجت من البيت وقبضت على الرجل وساقته فسار معها مكرها وهو يرغي ويزيد فتركته وسرت إلى بيت آخر فرأيت هناك رجالا داوني على الماء وجاءوا بشيخ القرية فاعتذر عن الرجل وأرسل رجاله فجاءوا بالعساكر والدواب وعلمت بعد ذلك أن كوجور معناه ساحر أو ولي .

جمال الغابات

وكانت الغابات التى نسير فيها من اجمل ما وقعت عليه العين ولا أظن الجنان الأربع التى أكثر العرب من وصفها أجمل منها وكان المطر قد زادها جمالا فكانت الأرض كلها مغطاة بالأعشاب والبقول يسرح فيها بقر الوحش والزراف والنعام وتغرد الطيور المختلفة الأشكال فى الأشجارها . وضجرت من الصيد فكنت لا أقتل التتيل ولو كان على الطريق أمامى ما لم أكن فى حاجة إلى لحمه لإطعام العساكر ونزلنا مرة للمبيت على بركة من الماء فرأينا هناك قطيعاً من الثياتل فلم نتعرض له ، ولما أظلم الليل أخذت الأسود تطربنا بزئيرها وبقيت تزأر الليل كله ، فلما أصبح الصباح إذا الثياتل باقية هناك فلم تبرح مكانها فكأن زئير الأسود راعها فبقيت هناك مستأنسة بنا وقد وصفت أشجار بحر الغزال فى رسالة سابقة لكننى رأيت من أنواع النباتات هذه المرة ما لم أره فى هذه البلاد قبلا منها نوع العنب البرى لم يكن أوان ثمره حينئذ فجمعت شيئاً من ورقه وطبخته كما نطبخه فى الشام ورأيت من البقول التى تنمو من نفسها البامية والملوخية والرجلة المعروفة فى الشام بالبقلة أو الفرفخين . وكان الريحان المعروف فى الشام بالحبق كثيراً جداً وأظن هذه الأصناف كلها أصلية فى بحر الغزال .

الشيخ أيُّوم

ووصلنا فى اليوم السادس إلى حلة الشيخ أيوم وكان شيخاً هرماً قديم العهد جداً لقيناه مستلقياً تحت شجرة كبيرة أمام منزله وحوله جماعة من رجاله فنزلنا هناك وكان الجنود قد قزت نفوسهم من لحم الصيد فطلبوا منى أن أشترى لهم خروفاً سميناً من خرفان الشيخ فقلت له أتبيعنى خروفاً قال عار علىّ أن أفعل ذلك بل أقدمه إليك هدية فقلت سبحان الله ماذا أصاب الرجل حتى حل به هذا الكرم الحاتمى ثم قلت فى نفسى لعل فى الدنكا ويين رجلا صالحاً

وقبلت الهدية منه وأهديت إليه ثوباً من الدمور فأخذه وقلبه بين يديه ثم نشره والتف رجاله حوله وأخذوا يتباحثون فيما بينهم فظننتهم معجبين بالثوب ثم طووه وأعادوه إليّ وقالوا رد الخروف فإن هديتك لا توازى ثمنه وكان الجنود قد ذبحوا الخروف فلم أر بدًّا من إرضاء القوم فأضفت إلى الثوب ثلاثين خرزة فقبلوا الهدية وعلمت بعد ذلك أن الشيخ أيوم هذا كان له شأن مع الزبير باشا فى الزمن السالف فأمر الزبير بجلده وقد رأيت فى منزله نحو خمس عشرة امرأة قيل لى إنهن زوجاته وسألت عنه بعد عودتنا من بحر الغزال فقيل لى إنه توفى وانضم إلى آبائه .

قبيلة الجور

تركنا حلة الشيخ أيوم وراءنا وهى آخر منازل الدنكا فى تلك النواحى الصعداء فتنفسنا ودخلنا بلاد الجور وهم قبيلة من السود يظن أنها وقبيلة الشلك من أصل واحد لما بينهما من المشابهة فى اللغة والعادات . والجور على قلة عددهم وضعفهم أرقى كثيراً من الدنكا ولهم مهارة فى صيد البر والبحر وفى استخراج الحديد من مناجمه وعمل الحراب والقسى والسهام والفؤوس وأساور النحاس والصفر والحديد فيبيعون كثيراً من هذه الآلات والحلى للدنكا وجل اعتماد الدنكا فى الصناعة عليهم لأنهم لا يعرفون شيئاً منها وقصارى ما تعلموه من غزاة الدناقلة وغيرهم استخراج العرق من البوزة ولا أظنهم يختلفون الآن عما كانوا عليه فى زمن بترك وشوينفورث وأغرب ما فيهم أن سلاحهم فى البلاد التى أجلتها لا يتعدى الحراب والدرق مع أن الجور والبنتو على ريبه سهم منهم وهم يتسلحون بالقسى والنبال منذ عهد بعيد .

زراعة التبغ

ونفد منى التبغ فاشتريت غليوناً (حجراً) وقليلا من تبغ تلك البلاد لكننى وجدته قوياً جداً فلم أقو على تدخينه . والتبغ هناك نوعان وهما التمباك والتبغ المعروف وهم يجمعونه رطباً ويجعلونه قوالب صغيرة شبيهة بقوالب السكر ثم يجففونه فإذا أرادوا التدخين سحقوه بين أصابعهم ودخنوه فى غلايين كبيرة جداً

قد يسع الواحد منها مائة درهم وبعضهم يمضغه مضغاً وهى عادة شائعة جداً فى السودان كله فإذا اكتفى الواحد منهم أخرج المدغة من فمه وألصقها وراء أذنه ثم عاد إليها متى اشتاقت نفسه إلى المضغ وقلما ترى أسود إلا وغليون فى يده أو مضغه فى فمه أو وراء أذنه . ولو عنى أهالى بحر الغزال بزراعتهم كلها عنايتهم بزراعة التبغ لأنبتت بلادهم من الحبوب ما يكفى السودان والقطر المصرى كله بل زاد على ذلك .

وللدكتور شوينفورث نزيل مصر الآن بحث فى تبغ تلك البلاد ذكر فيه أن أسماءه فى أكثر لغات القبائل هناك تشبه اللفظ الأفرنجى أى تباكو منها أه تُبُّو وتاب وتابتًا وتابديت وتم مما يدل على أنه دخيل فيها . أما التمباك فأسماؤه مختلفة وربما كان أصلياً فى أواسط أفريقية وسواء كان التمباك أصلياً فى الشرق أو دخيلا فيه كالتبغ فلا شبهة فى أن هذين اللفظين أى النبغ والتمباك دخيلان فى العربية وغيرها من اللغات الشرقية وهما مشتقان من لفظ تباكو الأمريكية لا أن لفظة تباكو من الطباق العربية كما يرى بعض كتابنا وعلمائنا الأفاضل . فالطباق يختلف كثيراً عن التبغ وهو من الفصيلة المركبة من طائفة حشيشة البراغيث ويعرف فى الشام بالطيون وفى الجزائر بالمكرمان ولا ينبت فى مصر فى ما أعلم وأشبه نبت به فى هذه البلاد رعراع أيوب . وهو مشهور ويختلف عنه بخلوه من اللزوجة . أما التبغ فمن الفصيلة الباذنجانية التى منها البطاطس والداتورا والحدق وعنب الدب والفلفل الأحمر وغيرها . ولا محل هنا للبحث فى هذه المسألة ومن شاء فليراجع وصف الطباق فى كتب اللغة ومفردات ابن البيطار وتذكرة داوود الأنطاكى وهذا توفى بعد دخول التبغ إلى الشرق بخمس سنوات فذكر الطباق ولم يذكر التبغ وقد ورد ذكر الطباق فى كتاب كشف الرموز لعبد الرزاق الجزائرى من أطباء القرن الثانى عشر للهجرة فوصفه وقال

---

(١) تلفظ القاف فى الأعلام السودانية والمغربية كالجيم المصرية رقد جريب فى كتابتها على طريقة أهل السودان والمغرب وأكثر المؤلفات العربية القديمة فيقال مثلا مملكة باقورنى ومدينة قورينا وقوز أبى جمعة الوادى الفارق وقبيلة الحلانقة وكيانقو سلطان القولو كلها بالقاف لا بالجيم .

إنه يسمى المكرمان فى الجزائر ولم يقل إنه التبغ وكان شائعاً جداً فى أيام ولا يعقل أنه كان يجهله .

الأرضه

ورأينا فى بلاد الجور نوعان من الأرضه لم نره قبلا وقد مر ذكر الأرضة فى ما سبق وهى حشرة صغيرة تعرف عند عامة الإنكليز والفرنسويين بالنملة البيضاء وهى معروفة عند العرب منذ عهد بعيد . قال الدميرى نقلا عن القزوينى ما نصه : « إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما وهى دابة الأرض التى دلت الجن على موت سليمان عليه السلام » . ثم ذكر أمر الصحيفة التى كتبها قريش على بنى هاشم وعلقوها فى الكعبة فأكلت الأرضة بعض ما كتب فيها .

والأرضة أنواع كثيرة أشهرها الأرضة المحاربة وهى كثيرة جداً فى السودان وبلادالعرب ومعروفة فى بعض أنحاء القطر المصرى. تبنى لها بيوتاً مخروطة الشكل قد بلغ ارتفاع الواحد منها ٢٠ قدماً فى كل بيت أو قربه أربع طوائف منها وهى العملة والجند وذوات الأجنحة ثم الملك والملكة وهما الذكر والأنثى فإذا جاء فصل المطر خرجت ذوات الأجنحة من القرى فلا تلبث حتى تسقط أجنحتها فيلتقطها السود ويأكلونها ويقال إن طعمها لذيذ جداً . وقد سمعت نساء الجنود يسمينها بالزرازير وهى كثيرة الدهن فكن يقلينها بما كان يسيل منه متى وضعت على النار .

وهذه الحشرة أو بالحرى طائفة العملة منها كثيرة الأضرار بالجلد والأخشاب والأمتعة فقد تأكل السرج أو الحذاء فى ليلة واحدة وقد كنت مرة نائماً فى ظل شجرة فأكلت بعض الملابس التى علىّ والحكومة مهتمة بها كثيراً وقد جربت وسائل كثيرة لإهلاكها بغير جدوى على أن الأدهان التى فيها مركب

من مركبات الزرنيخ أو الرصاص تقى الأخشاب منها إذا دهنت بها — أما الأرضة التى رأيناها فى بلاد الجور فتختلف بيوتها عن بيوت الأرضة المحاربة فهى أصغر منها كثيرا لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثين عقدة وهى شبيهة ، فى شكلها بنبات الفطر .

الوصول إلى واو

وبعد مسير تسعة أيام أصبحنا بيننا وبين واو نحو ثلاثة أميال فقلت عسى أن نصيب صيداً قبل وصولنا فنحمله هدية إلى الجنود الذين فيها وإذا ثور وحشى عرض لنا على الطريق أمامنا ولم يكن بيننا وبينه أكثر من مئة متر فوقف ينظر إلينا كأنه يستفهم عن سبب قدومنا وإزعاجنا إياه فى مرتعه : ولا بد أنه استغرب شكلنا وشكل الدواب التى معنا لأنه لم ير مثلها قبلا وكان من النوع المعروف بأبى عرف وهو من أكبر أنواع البقر الوحشية فى السودان ولا يقل فى عظم الجثة عن الثور الأهلى . فأطلقت عليه رصاصة أصابت منه مقتلا ثم ألحقتها بغيرها حتى لا يقع بعيداً عنا فسقط فى مكانه فتركت ثلاثة من الجنود يسلخون جلده ويقطعون لحمه ولما وصلنا إلى واو أرسل البكباشى بلنوى من جاء بلحمه ففرح به الجنود كثيراً . وكان وصولنا نحو التاسعة صباحاً وقد بقى بيننا وبين المعسكر نهر يعرف ببحر الجور وكان فى أعلى فيضانه وقد بلغ اتساعه نحو مئتى قدم ولم أكن أظنه فى هذا العظم من الاتساع والعمق فإنه بعد إزالة السد منه صارت البواخر النيلية تسير فيه فى زمن الفيضان كما تسير فى النيل وهو ليس سوى نهر من الأنهر التى تمد بحر الغزال وهذا يمد النيل الأبيض مع ما يمده من الأنهر الأخرى كبحر السبت وبحر الزراف . وليس النيل الأبيض إلا جزءاً من النيل الأعظم الذى يجرى فى مصر .

ورأينا البكباشى بلنوى واقفاً على الجانب الغربى وقد أرسل القوارب لعبورنا وكانت مصنوعة من النسيج اللكتيم كل قارب قطعتان أو ثلاث تفصل الواحدة عن الأخرى فيسهل طيها وحملها . فأرسلت الحمير أولا ثم المؤونة ثم الجنود وكان أول سؤال وجهه إلىّ عن صحة الحمير وسلامتها فقلت مات منها ثلاثة عن الطريق

قال كنت أود أن تصل كلها سالمة لأننا فى شدة الحاجة إليها ثم قال وكيف صحتك أنت أظنك جائعاً ونادى خادمه ليهيء لى طعاماً قلت إنى لفى جوع شديد لكن شوقى إلى التدخين أشد من شوقى إلى الطعام فقدم لى سيكارة من أجود السكاير المصرية ثم أعطانى صندوق منها . ولقد ذقت مرارة العيش وشيئاً يسيراً من حلاوته ونسيت أكثره لكننى لا أنسى تلك السيكارة ولذتها .

ولما أخذت نصيباً من الراحة أخذنى وأرانى كوخاً صغيراً وقال هذا منزلك هنا فحمدت الله على نعمه وقلت قد صار لى سقف فوق رأسى وكان قد مضى أكثر من ستة أشهر إما فى العراء أو فى ظل شجرة أو خيمة . ولم نكن نحمل خياماً فى سفرنا لأن الدواب لم تكن تكفى لحمل المؤونة . فدخلت منزلى وأرسلت حمارى إلى الإسطبل العامر حيث نزل ضيفاً على الحكومة .

واو

وكانت واو كما مر بنا فى مكان بنى فيه الكولونيل مرشان حصناً سماه حصن ديزيه فلما نزلناه فى أوائل يناير بنينا منازلنا حوله وحوطناها بزريبة من الخشب والشوك وبنى الجنود منازل لنسائهم خارج الزريبة ثم جاء جماعة من الأهالى وبنو منازلهم هناك فصار المكان غاصاً بالسكان . ولم يكن فيه من الضباط عند وصولنا إلا البكباشى بلنوى وأحمد أفندى كامل ثم وفد علينا بعد أيام المرحوم اليوزباشى على وهبى وكان قادماً من مصر . أما سباركس بك والبكباشى برى والبكباشى هيمس والملازم الثانى محمد أفندى على فكانوا فى بلاد النمانم وهى على حدود ولاية الكونغو .

ولم تطل إقامتنا فى واو حتى اشتدت علينا الحمى الملارية فكنا نقوم بأعمالنا وهى ملازمة لنا واتخذ كل منا عصا يتوكأ عليها فكنت إذا ارتفعت الشمس وقلت الرطوبة من الهواء أخرج من منزلى وأمر على الضباط فمن لم يكن محموماً فى ذلك اليوم أو كانت الحمى خفيفة عليه خرج لأعماله وإلا بقى فى فراشه . وكان كامل أفندى أشدنا نشاطاً فلما قل الزاد فى المحطة أخذ الحمير وسار غرباً فى طلب الذرة وكانت الدواب قليلة جداً وقد مات أكثرها فتطوع حمارى

فى هذه السفرة وعاد سليما معافى .

وأخذنا نبنى منازل جديدة أحسن من التى كنا فيها فأقمنا بضعة عشر منزلا شبيهة بمنازل تلك البلاد لكننا جعلناها مربعة لا مستديرة وجعلنا لبعضها سقفاً مسنمة . وحدث ونحن نبنى هذه المنازل أن البكباشى بانوى قال لى حبذا لو كان عثمان صديق معنا قلت عجباً كنت أظنك غير راض عنه لما جرى بينه وبين الضباط الإنكليز فى حديقة الأزبكية قال هو من خيرة الضباط على شرط أن يكون بعيداً عن القاهرة أخرجه منها فلا تجد من يفوقه فى النشاط والعمل . لقد مضى على هذه الحادثة إحدى عشرة سنة وقد ذكرتها لأننى لقيت عثمان بك صديق بالأمس ورويتها له فضحك كثيراً . وهو (الآن) ضابط فى الجيش العثمانى ولم تكد إيطاليا تعلن الحرب على الدولة العلية حتى جاء من الأستانة وسافر إلى ساحة القتال . وكنت أود أن أذكر بعض ما أتى به من الأعمال المجيدة فى هذه الحرب لكن الحكمة تقضى بكتمانها فى الوقت الحاضر . ولقد أبلى بلاء حسناً يوم دخل جيش الحرية الأستانة فى ثورتها المشهورة.

مشكلة نسائية

ولما دخلنا بحر الغزال أعلن سباركس بك أن الخصومات التى وقعت قبل الثانى من سبتمبر سنة ١٨٩٨ وهو اليوم الذى دخلنا فيه أم درمان لا ينظر فيها بل يبقى كل قديم على قدمه أما الخصومات التى وقعت بعد هذا التاريخ فيحكم فيها حسب عادات البلاد . فجاءنا فى أحد الأيام ونحن فى واو جماعة من السود ومعهم امرأة يتنازعهما رجلان منهم كل يدعى أنها زوجته وأنه اشتراها بماله وقد طال النزاع عليها فكانت تارة عند هذا الرجل وتارة عند ذلك . وقتل أحدهم أخاها بسببها . ولم يكن البكباشى بانوى ميالا إلى الحكم فى هذه المسألة لكن الرجلين ألحا عليه فى الفصل بينهما فقلت أتترك الحكم لى قال لك ما تريد قلت هل يكون حكمى قاطعاً لا يستأنف فيه ولا نقض قال نعم فالتفت إلى المرأة وقلت أى الرجلين تريدين قالت هذا وأشارت إلى قاتل أخيها فقلت له خذ زوجتك وامض .

وقد وقعت لنا مسألة مثل هذه وأنا سائر مع البكباشي هيمس على مقربة من المشرع فإننا لقينا على الطريق رجلا من المهاجرين الذين جاءوا معنا من الخرطوم وكان معه امرأة ورجلان يحملان جلد شاه وحزمة صغيرة من التبن فلما رأونا قال المهاجر كنا سائرين إلى المشرع نتقاضى على هذه المرأة وقد تزوجتها فى الخرطوم بسنة الله ورسوله فلما جئنا إلى هذه البلاد رآها أخوها وأخذها منى وباعها لهذا الرجل ثم أردنا عقد الزواج وكان عليه ختم المأذون فى الخرطوم والصداق عشرة غروش . وقال الأخ لم يكن مسلماً هى أختى سرقت صغيرة من بيت أبى وبيعت فى الخرطوم فلما رأيتها عرفتها وهى ماكى بعد وفاة أبى . وقال الثالث هى زوجتى وقد اشتريتها من أخيها بعدد هذه التبنات من العاج وحل الحزمة فإذا هى عشرون تبنة . فقلنا للأخ ارجع إلى الرجل نعجاته لأنك بعته امرأة هى زوجة رجل آخر قال لا بل هى ماكى لأن زوجها الأول لم يدفع لى ثمنها فلا حق له بها وقد ماتت نعجة من هذه النعاج وأرانا جلدها . ورأينا الرجل مصيباً لكن الخصومة كانت بينه وبين مسلم تزوج امرأته وأرسلنا الجماعة إلى المشرع حيث عرضوا قضيتهم عليه فحلها على أهون سبيل .

نساء تلك البلاد

والنساء هناك من العروض التى تباع وتشترى فاو اتفق أن رجلا سبى امرأة أو سرقها وبقيت عنده سنوات ثم عثر عليها زوجها طالبه بها وبأولادها كما نطالب بالفرس ونتاجها . وإذا توفى رجل عن زوجات وبنات ورثهن أبناؤه كما يرثون أمواله الأخرى . ويقتنى الرجل من النساء بقدر ما عنده من البقر والغنم وثمن المرأة من بقرتين إلى عشرين بقرة أو ما يعادل ذلك من الضأن أو المعز حكى لى البكباشي هيمس مرة أنه نزل ضيفاً على أحد سلاطين تلك البلاد فأولم له وليمة كان فيها من الأطعمة دجاج قد ساق وأمعاؤه فيه فقال له من طبخ هذا الطعام قال إحدى زوجاتى قال كم عندك منهن قال أمهلنى قليلا ثم خرج حتى وقف على الباب وجعل يعد منازلهم فلما عاد قال هن خمس عشرة امرأة .

أما نساء تلك البلاد فكثيرات منهن حسان مستويات الخلق رشيقات القد يزرين بكثير من البيض الحسان شكلا واعتدالا لكنهن متى كبرن محيت منهن معالم تلك المحاسن واعتادهن قبح تنبو عنه الأبصار والمتزوجات منهن يتشحن بوشاحين من الجلد متقابلين وربما اتزر الفتيات بجلد ثالث يرسانه على الصدر. ومنهن من تتخذ بضع ورقات من ورق الشجر تستعيض عنها بالجلود فتكاد تكون متجردة . أما العذارى فبعضهن متجردات ويتشح البعض الآخر بالرهط وهو جلد مشقق من أعلاه إلى أسفله كانت تلبسه الإماء عند العرب ولا يزال معروفاً بهذا الإسم فى السودان .

الحاصلات

كان حصن ديزيه والمنازل التى حوله فى غابة ملتفة من الشجرة والحصن نفسه فى أرض حجرية مرتفعة بينهما وبين النهر أرض فضاء جيدالتربة كان الفرنسويون قد أصلحوها وزرعوا فيها بعض أصناف البقول وقد بقى منها قليل من الفول السودانى وشجرة من الفلفل الأحمر فعهد إلى البكباشى بلنوىوأعطانى بزراعتها بزور بعض البقول الإنكليزية وكان قد جاءنى من بيروت بزور بعض البقول التى تزرع فيها فزرعتها كلها فجاءت كثيراً وأكثر زراعة الأهالى فى تلك البلاد الذرة المعروفة فى مصر بالذرة البلدية وفى الشام بالذرة البيضاء وهى أصناف كثيرة تزرع فى السودان كله اعليها عتماد الأهالى فى قوتهم وزراعتها قديمة جداً فيه وفى مصر وبلاد العرب وهى المعروفة بالذرة فى المؤلفات العربية . ومنها نوع يعرف فى السودان بالعنتوليب وفى مصر بالذرة العويجاء لعصارة قصبه حلاوة تشبه حلاوة قصب السكر . ومنها التيلبون وهى ضرب من الذرة صغير الحب يصنعون منه جعة يفضلونها عن الجعة المصنوعة من الذرة البيضاء ومن زراعتهم الذرة الصفراء المعروفة فى مصر بالذرة الشامية وفى السودان بعيش الريف والدخن واللوبيا المعروفة فى مصر باللوبيا البلدية وفى الشام باوبيا المسلأت . وضرب آخر فى اللوبيا خاص بتلك البلاد والقلقاس والبطاطا الحلوة وصنفان من القرع والباميا والتيل وهو نوع

من البامية يصنعون من أليافه حبالا .

وكان على ميل من المعسكر أرض فضاء مستوية مساحتها نحو أربعة أفدنة فأصلحناها وزرعناها ذرة لكن لم يكد حبها يخرج حتى تسلط عليها القرود والعصافير وكنا في شدة الحاجة إلى القوت فوضعنا ستة من الجنود لحراستها وطرد القرود والعصافير عنها فصارت القرود تأتيها ليلا فقتل الجنود قرداً منها فلما رأت ما حل به وجدت أن الذرة غير صالحة لمعدها فارتحلت عنها .

ما يأكل السود من اللحوم

وجاء جماعة من السود وأخذوا القرد الذى قتلته الجنود وكان كبير الجثة جداً فحملوه إلى قرب المعسكر وسلخوه وعلقوه فى شجرة ثم أوقدوا النار تحته وشووه وأكلوه وكان وهو مسلوخ ومعلق فى الشجرة لا يختلف كثيراً فى شكله عن الآدمى . والسود فى تلك البلاد لا يكادون يعافون لحم حيوان سواء كان غريداً أو عفناً فبعض القبائل تعاف لحم الطير لكنها تأكل لحم الكلب أو القط أو الضبع وبعضها يعاف الضبع ويأكل القط والنمر وقد رأيت بعضهم يأكلوا نمراً قتله أحد الجنود فى واو . وكان فى المعسكر قط وحشى قبضنا عليه صغيراً وربى فى منازلنا . وصار آلف من القط الأهلى فرآه جماعة منهم وظنوه وحشياً فقبضوا عليه وخنقوه وأكلوه . فكان نصيب كل منهم ٧ جلدات وكان فى المعسكر نمس أليف خفنا أن يأكلوه لكنه كان أشد دهاء منهم فلم يقدروا عليه .

أما أكل لحوم البشر فليس معروفاً فى الأماكن التى دخلتها لكن لا شبه فى أن النمانم الذين على حدود الكنغو يأكلون لحوم الناس على أن هذه العادة ليست عامة فيهم . أخبرنى البكباشى هيمس أن أحد سلاطينهم عرض مرة جنوده أمامه فسأله عن صحة ما يقال عن أكلهم لحوم الناس فقال نعم بعضهم يفعل ذلك فأشار إليهم واحداً واحداً فقال البكباشى لأحدهم وأشار إلى أحد البيض الواقفين هناك أتحب أن تأكل هذا فأبدى اشمئزازا وقال كلا كأن

نفسه تعاف أكل الأبيض من الناس . ولا يستغرب أكل السود لحوم البشر ولحوم بعض الحيوانات التى تعافها النفس . وما الميل إلى أكل صنف من اللحوم دون غيره سوى عادة فينا فمنا من يستطيب لحم الخنزير مثلا ومنا من يشمئز منه سواء حرمه الدين أو حلله وما الخنزير بأنظف من النمر أو القط أو البغل ولا يفضل الدجاج من هذا القبيل على الصقور والبزاة .

وفود السلاطين والأهالى على الحكومة

وكان من النازلين فى واو رجل خفيف الروح جداً اسمه الماس فقلت له مرة : وددت لو رأيت سلطاناً من سلاطينكم قال أنا سلطان قات ويحك وأين مملكتك قال كان أبى من السلاطين العظام وكان له جيش كبير فيه أكثر من ثلاثين مقاتلا هلكوا جميعاً .

ثم أخذنى إلى دار ملكه فإذا هو ثلاثة أكواخ ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى وفد علينا أول سلطان من سلاطينهم وهو أبن كإبن كيانقوا سلطان القولوا وكان معه نحو خمسين مقاتلا وهم يطلبون ويزمرون أمامه فنزل فى ضيافتنا ثلاثة أيام وارتحل .

وكنت قد رأيت معه بوقاً كبيراً مصنوعاً من ناب فيل فاشتريته منه بقليل من الخرز وبعض ملابس عسكرية إلخ . وكانت آخر ما بقى عندى فى واو ولم يبق عندى من الملابس الملكية الأ قبعة وقميصان وبنطلون وزوجان من الجوارب وحذاء ولا يزال البوق عندى وطوله أكثر من متر .

ثم وفد علينا بعد أيام نحو مئة رجل كانوا من جنود الباشبوزق فى أيام الحكومة القديمة لجأوا فى زمن المهدية إلى أحد سلاطين تلك البلاد واسمه تشكتشلك فلماعلموا بقدومنا تركوا سيدهم وصاروا إلى واو يريدون الدخول فى خدمة الحكومة ولما صاروا على مرحلة منه أرسلوا الينا كتاباً يعلموننا بقدومهم فحار البكباشى بلنوى فى أمره لأن القوت كان قليلا جداً عندنا ولم نكن فى حاجة إلى خدمتهم لكنه لم ير بداً من قبولهم فلما وصلوا أرسلنى إلى خارج الزريبة لاستقبالهم وخبأ

بعض الجنود فى الزريبة خوفاً من غدرهم فأدخلتهم واحداً واحداً حتى إذا وصل الرجل منهم إلى الطابية نزع منه سلاحه . وكان هؤلاء الجنود فى أشكال مختلفة بعضهم مسلح ببنادق الرمنغتون والبعض الآخر بذوات الزناد وكان عليهم قائدان أو مقدمان يعرفان شيئاً من النداء العسكرى باللغة التركية وسمع سلطان التنبورة وهى إحدى قبائل النمانم باحتلال بحر الغزال فأوفد أخاه وبعض رجاله للسلام علينا فجاءوا ومعهم قدور العسل وسلال الموز وأنياب العاج فاقتسمنا الموز بيننا ولم نكن قد أكلنا من الفاكهة بعد ترك أم درمان غير ما كان محفوظاً منها فى العلب أما العسل فكان كثيراً جداً عندنا . وكان سباركس بك قد صار بنفسه إلى بلاد النمانم كما مر لكن أخا السلطان جاء فى طريق آخر فلم يتقابلا . ولما وصل سباركس بك إلى بلاد السلطان أحسن السلطان وفادته وأنزله فى ضيافته هو ومن معه من الضباط والجنود وأهدى إلى الحكومة ثمانين نابا من العاج فأرسلها سباركس بك مع محمد أفندى على وكان يحملها مائة رجل لأنه كان يقتضى رجلان لحمل كل من الأنياب الكبيرة . ولم يكن فى واو ميزان نزنها به فقدرنا ثمنها بألف وخمسمائة جنيه وجاء مع محمد أفندى على كتاب من سباركس بك وفيه جدول بالهدايا التى اختار السلطان أن تهدى إليه فبعث به البكباشى بلنوى إلى السردار وطلب منه منه إرسال الهدية وكان معظمها أنسجة وسكر وشاى وذخيرة وكونياك وقيمتها نحو مائة جنيه .

الأسود فى واو

كان عندنا فى واو قطيع من الغنم وبضع بقرات كان يخرج بها أحد الجنود كل يوم فترعى خارج الزريبة ثم تعود للمبيت فيها فاتفق ليلة أن باب الزريبة ترك مفتوحاً فجاء ثلاثة أسود مهتدية برائحة البقر والغنم ودخلت الزريبة تريد إفتراسها وكان دخولها خلسة وسيرها بطيئا كما علمنا من أثار أقدامها ثم ما لبثت أن رأت الحارس واقفاً والنار موقدة أمامه فارتدت مذعورة وهى تعدوا عدواً فكانت آثارها وهى داخلة مختلفة عن آثارها وهى خارجة .

ثم بعد أيام رأينا أحد الجنود الموكلين بحراسة الزرع مسرعاً إلى الزريبة وكنت واقفاً مع البكباشي بلنوى فلما رآنا قال الديدبان فى الذرة يريد بالديدان الأسود فأسرع كل منا إلى بندقيته وسرنا معه فلما وصلنا إلى الزرع قال لنا الجنود الذين هناك أن ثيتلا دخل الزرع ووراءه ثلاثة أسود تطارده وكادت تفتك به لكنه نجا منها فرجعت الأسود مغضبة ودخلت أجمة أشاروا إليها ولم تكن على أكثر من مائة متر منا . وبينما نحن نتكلم رأينا رجلا مقبلا نحونا وهو يسير الهوينا وقد وضع حربته على كتفه كأن رؤيته رجال الحكومة جعلته فى مأمن على نفسه ولم يكن يدرى أن الأسود على بضع خطوات منه . وكان سائراً نحوها فلما وصل إليها زأرت زئيراً ارتجت له الغابة فوثب وثبة لا أظنه ينساها . وعلمنا من زئير الأسود مكان وجودها تماماً فسرنا نحوها خطوة خطوة لا يسمع صوت لمشينا فلما ولجنا الأجمة وجدنا العشب فيها قد بلغ أغصان الشجر فلم نقدر أن نرى شيئاً حولنا وما شعارنا إلا والأسود قد زأرت وهى على أربعة أمتار منا لكننا لم نرها بل رأينا اهتزاز العشب لما نهضت وتموجه وهى سائرة وكان الجنود وبعض المتفرجين خارج الأجمة فرأوا الأسود قد خرجت منها ودخلت أجمة أخرى دلونا عليها فدخلنا وراءها وإذا بها قد وثبت على عشر خطوات منا لكن العشب حجبها عنا فلم نر إلا ظهورها فأطلق البكباشي بلنوى الرصاص على أحدها فأخطأه أما أنا فأمسكت عن رميها . وعادت الأسود واختبأت فى أجمة ثالثة فقلت للبكباشي لا أرى فائدة من دخولنا كلينا من جهة واحدة فإن الأسود تجد مخرجاً من الجانب الآخر فما قولك لو دخلنا متقابلين قال حسن اذهب إلى الجهة الأخرى . فدرت حول الأجمة ولم أكد أصل إلى جانبها الآخر حتى خرج علىّ أسد والبوتان وقفت لبوة منهما لحظة واحدة فأطلقت النار عليها لكننى خطأتها . ووجدت الأسود أنها بين نارين فأخذت تعدوا من مكان إلى آخر وأنا لا أراها بل أسمع وقع أقدامها كوقع حوافر الخيل ثم مرت أمامى والعشب يحجبها عنى ونجت منا أو بالحرى نجونا منها لأن حسرها بيننا كان خطأ منا .

عودة سبركس بك

وعاد سباركس بك وجماعته من بلاد النمانم وكانت الحمى قد أنهكت قواهم ولم نكن نحن فى واو أقوى منهم وكنت مقيما مع كامل أفندى فى منزل واحد والحمى ملازمة لنا . وكان عند سباركس بك طباخ على جانب عظيم من الظرف لكنه كان شديد الميل إلى الوسكى وهى عزيزة جداً فى تلك البلاد فاستعاض عنها بنبيذ الذرة ويعرف فى السودان بالمريسة . فاتفق يوم وصولهم أنه مر أمام منزلنا فأدخل رأسه ليرى من فيه فرأى كلا منا على فراشه فقال مالكما قلنا هى الحمى قد جعلتنا كذلك . وكان رحمه الله يرى زجاجة الويسكى ولو وراء حائط فلمحت عيناه زجاجة عندنا فقال « دى إيه دى » قلنا زجاجة وسكى هل لك فى جرعة منها قال لا بأس وشرب جرعة أبقت فى الزجاجة ثلثيها وانصرف . ثم ما لبث أن عاد يسأل عن صحتنا وبلع جرعة أخرى وكثر اهتمامه بنا وتردداه علينا وعلى الزجاجة فى ذلك اليوم فلما جاء العصر انقطع عنا فقلت لكامل أفندى أظن صاحبنا قد سكر ثم جاء البكباشى هيمس فى الصباح التالى وقال ماذا عملت بالطباخ قلت ماذا أصابه وظننت أنه مات قال قد سكر سكرة لم يفق منها حتى الآن والبك يرجو منك أن لا تسقيه شيئاً فيما بعد فإنه تركه أمس بغير عشاء قلت هى آخر زجاجة عندى وقد أشفقت عليه لأنه لم يذق منذ ثلاثة أشهر غير المريسة والماء العكر .

اليوزباشي أحمد كامل

هو رفيق من رفقاء هذه الرحلة . اليوزباشي أحمد أفندى كامل . لم أدر وأنا أكتب رسالتى إلى مصر إنه كان فى أقصى أنحاء السودان يقاتل فى مقدمة جنوده هو ومن معه من الضباط حتى قتلوا جميعاً فإن الحكومة أنفذت تجريدة فى شتاء (هذا العام) للاقتصاص من بعض القبائل المتمردة بين أعالى النيل وبلاد الحبشة وقد كان أخى معها فكتب إلى ، يقول إنه سمع من الضباط

المحنكين الذين شهدوا أكثر الوقائع الحربية فى السودان أنهم لم يكابدوا فى المشاق ما كابدوه هذه المرة ثم جاءتنا الأخبار بوقوع باوك من البيادة الراكبة فى كمين من العصاة فقتل ضباطه جميعهم مما يدل على أنهم كانوا فى مقدمة جنودهم وكان كامل أفندى واحداً منهم .

عرفت هذا الشاب قبل سفرنا فى بحر الغزال وأقمنا هناك سنة لا يكاد يفارق الواحد منا الآخر وكثيراً ما نمنا جنباً إلى جنب الأرض وطاؤنا والسماء غطاؤنا . ورأيت منه شاباً كريم الأخلاق حسن المعشر وضابطاً نشيطاً لا يكاد يعرف الكلل وقد كان له شأن يذكر بعد عودتنا من بحر الغزال فإنه أبلى بلاء حسناً فى موقعة جيروك على النيل الأزرق وقبض بيده على النخاس محمود وكان قد خرج على الحكومة ثم قادته منيته مرة أخرى إلى أعالى النيل حيث وافاه القدر المحتوم فمات الجندى الباسل رحمه الله رحمة واسعة .

النمانم

فى الجزء الجنوبى من بحر الغزال والجزء الشمالى من ولاية الكنغو جيل من الناس يعرفون عند عرب السودان بالنمانم أو النيامنم وقد رووا عنهم قبل دخول الأوربيين إلى تلك البلاد أنهم من أكلة لحوم البشر ولا شبهة الآن فى صحة هذه الرواية . ولفظة النمانم هذه أصلها « نيام نيام » بلغة الدنكا ومعناها شره أو انهم وهو الإسم الذى أطلقه الدنكاويون على هؤلاء القوم فشاع وتغلب على إسمهم الأصلى الذى يعرفون به فيما بينهم وهو الأزندى .

والنمانم على رغم أكلهم لحوم الناس أرقى كثيراً من الدنكا والشلك الجوز والبنقاوا وغيرهم من قبائل السود التى فى بحر الغزال ولابد لإيضاح ذلك من ذكر شىء عن الشعوب والقبائل التى فى السودان فإن الذى لا يعرف هذه البلاد قد يظن أن كل سكانها من جنس واحد أو كلهم سود أو زنوج . الجزء الشمالى والشرقى من السودان سكانه النوبيون (البرابرة) والبجاة وهؤلاء على الراجح من نسل الأسيويين القدماء . أما أواسطه أى من أبى حمد شمالا إلى الرنك جنوباً

فأكثرهم عرب رحلوا إليه فى أزمان مختلفة ولا تزال بعض قبائلهم معروفة بأسمائها العربية كسليم وجهينة وكنانة وغيرها . وفى بعض هذه الأنحاء شعوب من شبه السود كالفنك سكان النيل الأزرق فى أعاليه والفوز سكان دارفور فى الغرب فإذا اجتاز المسافر الأماكن التى فيها العرب وشبه السود دخل منطقة سكانها كلهم زنوج ألوانهم سود حالكة وهم قبائل كثيرة أشهرها دنكا والشلك والنوير فمتى وصل إلى الدرجة الخامسة من العرض الشمالى دخل منطقة فيها جيل من الناس يختلفون تمام الاختلاف عن السود وهذه المنطقة واقعة على جانب خط الاستواء والشعوب التى فيها مزيج من الأسيويين والسود أقل سواد من هؤلاء وأرقى كثيراً فى المدنية وأشهرهم النمانم فى الشرق والفور فى الغرب ويعرف هؤلاء عند العرب بالفلاتة وهم مسلمون متمسكون بالإسلام ومنهم معظمهم سكان الكنغو الفرنسوى ويقيم بعضهم فى السودان المصرى .

وقد كانت رحلة سباركس بك كما مر إلى بلاد النمانم حيث لقيه أحد سلاطينهم واسمه طنبورة . واصعب جدا معرفة أسماء القبائل والأمكنة والسلاطين فى بحر الغزال فكثيراً ما تدعى القبيلة باسم سلطانها أو شيخها ثم إذا مات تغير اسمها بتغيره ولا أدرى هل هذا الإسم أى طنبورة اسم السلطان أو اسم القبيلة . وقد روى سباركس بك وجماعته شيئاً كثيراً عما رأوه فى تلك البلاد فقالوا إن السلطان يعرف العربية وقد كان يدين بالإسلام فى زمن الحكومة القديمة وهو أقرب إلى التمدن من كل السلاطين الذين لقوهم فى تلك البلاد عدد رجاله أربعة آلاف مقاتل بعضهم مسلح بالبنادق والبعض الآخر بالقس والحراب . وقالوا إن الماشية قليلة جداً فى تلك البلاد لكن الزراعة والخيرات كثيرة فيها لا سيما زراعة الموز والذرة والتيلبون . أما لباسهم فهو وشاح يصنعونه من لحاء شجر يعرف عندهم بالركو ينقعونه فى الماء ويدلكونه حتى يلين فيصير كأنه نسيج من الصوف وقد يخيطون منه أثواباً .

أما الحيوانات فى تلك البلاد فكثيرة جداً وهى الأسد والنمر والجاموس والثور الوحشى على أنواعه والكركدن والزراف والنعام والبعام أى الشنبنزى . ولقى البكباشى هيمس قطيعا من القيلة على مقربة من مكان نزل الجنود فيه فانتقى فيلا كبيراً

منها وتبعه حتى صار على مقربة منه وكانت الشمس قد غربت فرماه بالرصاص فجرح لكنه لم يقع بل نجا منه . وكان معه رجل من الأهالى فعادوا إلى المعسكر فلما كان الصباح التالى رجعا إلى المكان الذى كان الفيل واقفاً فيه واقتفيا أثره حتى رأيناه فرماه البكباشى وقتله . وقد قال لى إنه لم يكد يطلق الرصاص عليه حتى رأى فيلا آخر وراءه كاد أن يلمسه بخرطومه ففر منه ثم عاد وقطع نابى الفيل الذى قتله ولحق بالجنود وكانوا قد ارتحلوا من مكانهم .

التماسيح فى أعالى النيل

كانت التماسيح فى زمن الفراعنة كثيرة جداً فى مصر فقد روى هيرودوتس أن الكلاب إذا وردت النيل دلفت الماء وهى تعدو خوفاً من التماسيح . وقد انقرضت التماسيح من مصر شمالى أصوان وقلما يرى واحداً منها بين أصوان والخرطوم أما من الخرطوم إلى منابع النيل فلا يعلم عددها إلا الله والنزول فى الماء فى بعض الأماكن لا سيما فى الأنهار الصغيرة التى تمد النيل ضرب من الجنون فقد ذكر لى أحد الضباط أنه وقف مرة على شاطئ نهر التونج وعد التماسيح التى رآها وهو واقف فى مكانه فكانت أربعة وثلاثين تمساحاً بعضها فى الماء وبعضها على شاطئ النهر . ويقال إنه قلما يقتل تمساح كبير فى أعالى النيل ولا يرى فى أمعائه مالا يقوى على هضمه من آثار الآدميين كالشعر والخرز وأساور النحاس وكثيراً ما كانت التماسيح تفترس حميرنا إذا قربت من الشاطئ لترد الماء .

واتفق مرة أن جنوداً جاءوا من مشرع الريك ومعهم حمير ويقال أرسلت إلينا من أم درمان بدل الدواب التى ماتت فلما وصلوا وقد بقى النهر بيننا وبينهم قال لى البكباشى بلنوى خذ القوارب وات بهم فنقلت الحمير فى القوارب أما البغال فلم أتمكن من نقلها فيها لأنها كانت صغيرة ولا يسع الواحد منها بغلا واحداً فكنت أجعل لكل قارب بغلين أنزلهما فى الماء فيجرها الجنود وهم فى القارب حتى إذا وصلوا بهما إلى الجانب الآخر من النهر عادوا وأخذوا غيرهما

وهكذا حتى عبر أكثرها وبقى بغلان منها فلما وصل الجنود بهما إلى منتصف النهر رأيت كأن تياراً دفعهم وهم يجذفون بكل قواهم ثم كأنهم تغلبوا على التيار ووصلوا إلى الضفة الأخرى وخرجوا بالبغلين . وكنت لا أزال واقفاً على الجانب الآخر من النهر فرأيت بغلا منهما بغير ذنب فعبرت لأرى ماذا أصابه فإذا ذنبه مبتور وقطعة كبيرة من فخذه قد ذهبت وهو يشخب دماً فعلمت أن تمساحاً قبض عليه فى الماء وجره ولم يتركه حتى أخذ ذنبه وقطعة كبيرة من فخذه . وقد بقى هذا البغل حياً وعاد معى بعد ذلك بشهرين إلى مشرع الريك .

سفر سباركس بك إلى مصر

واشتدت الحمى علينا ولزم سباركس بك منزله فكان لا يخرج منه إلا نادراً ولم تكن الحمى تفارقه وثقلت وطأتها علىّ فلزمت فراشى . وجاءنى البكباشى هيمس عداندا فقال هل تريد شيئاً قلت سيأتينى من أم درمان شىء كثير من الخرز والنحاس فى البريد القادم فحبذا لو أعطانى سباركس بك منه خرزة من خرز الحكومة أشترى بها شيئاً من اللبن حيناً بعد آخر قال سأسأله ذلك ثم ما لبث أن عاد ومعه خمسون خرزة وقال ليس عند الحكومة إلا خمسمائة خرزة وهى لا تكفى لمشترى القوت للعساكر لكن عندى مائة خرزة فخذ نصفها خمسون خرزة شىء يسير جداً لكن لم يكن فى واو غيرها وغير الخمسمائة التى فى مخازن الحكومة هى كل ما عندها فكأنه أعطانى نصف ثروته . وعزم سباركس بك على السفر إلى مصر فأناب عنه البكباشى بانوى وجمع الجنود والضباط وودعهم وسار إلى مشرع الريك ومعه البكباشى هيمس وكامل أفندى ومحمد أفندى على وبعض الجنود فقال لى البكباشى هيمس إبق هنا بضعة أيام ثم الحق بنا واتفقنا على أن أكون فى مشرع الريك فى أول سبتمبر فأسافر فى الباخرة التى تنقل البريد منا فى أول كل شهر إلى التوفيقية على النيل الأبيض ثم انتقل هناك إلى الباخرة التى تنقله منها إلى الخرطوم وكانت قد صارت عاصمة السودان وانتقلت إليها دواوين الحكومة من أم درمان فى غيابنا واتفق بعد سفرهم أن البكباشى

بلنوى ضعفت قواه كثيراً فأشرت عليه بالسفر معى فأبى فقلت أبقى إذاً معك قال لا بل تسافر وألح على بالسفر وقال إن البكباشى هيمس يكون فى واو بعد أيام فلا أبقى وحدى زمنا طويلا فلما جاء اليوم المعين رأيته كأن الوحشة قد غلبت عليه فقال حبذا لو بقيت معى أياماً قلت أبقى أشهراً . وكان البكباشى هيمس فى مشرع الريك ينتظر وصولى ولم يعلم أنى بقيت فى واو فلما لم أصل فى اليوم المعين ظن أن مكروهاً أصابنى على الطريق فأنفذ رسولاً ومعه كتاب قال لى فيه « قل لى أين أنت الآن وماذا أصابك إن الباخرة تنتظرك إلى مساء اليوم الأول من الشهر » فأخذ الرسول عصا وشق أحد طرفيها ووضع الكتاب فى الشق وسار على قدميه ثمانية أيام حتى وصل إلى واو ثم جاء البكباشى هيمس بعده ببضعة أيام فدهش لما رآنى وقال ظلمتك فى العالم الآتى .

العودة إلى مصر

وبقيت فى واو إلى موعد البريد التالى فلما حان وقت السفر أرسلت أمتعتى إلى الضفة الأخرى إلى النهر وبت هناك وسرت فى الصباح التالى ومعى عشرة جنود وعشرة حمالين وكان معنا فى واو خمسة مسجونين حكم عليهم فى مصر بالأشغال الشاقة مدى الحياة لارتكابهم جناية القتل وقد مضى على كل منهم بضع عشرة سنة فى سجون ترى وسواكن وأم درمان وكانت صناعة بعضهم البناء والبعض الآخر النجارة فأرسلتهم الحكومة إلى واو لبناء المنازل وكانوا بغير قيود فى أرجلهم لأن لا خوف من فرارهم فى تلك البلاد والفرار فيها أشد خطراً من البقاء فى ضيافة الحكومة وكان اثنان منهم سوريين أحدهما من حوران وهو شيخ كبير ذو لحية بيضاء والثلاثة الآخرين مصريين فأصيب أحد هؤلاء المسجونين بالحمى فأخذته معى إلى الخرطوم وكان اسمه عبد الرحيم وهو من كبار الأشرار وارتكب القتل مراراً منها مرة وهو فى السجن فحكم عليه بسبع سنوات أخرى أى أضيف صفر من السنين إلى مدة الحكم السابق ولعل هذا الصفر كان مكافئة له لأن المقتول كان سجيناً آخر لا يقل عنه شهرة ولما كان عبد الرحيم

هذا نحيف البنية وقد ربى فى رفاهة من العيش أركبته البغل الأبتر الذى مر ذكره ولم يكن معى غيره من البغال فكان هو يركب وأنا أسير على قدمى فسرت ثلاثة عشر يوماً وعبد الرحيم لا يفارق ظهر البغل ولعله لا يزال حتى الآن يسرح ويمرح فى ضيافة الحكومة وسرنا من واو فى أوائل أكتوبر وفصل المطر فى أواخره وكانت المياه قد غمرت البلاد فى كثير من الأماكن والعشب قد ارتفع إلى ما يزيد على قامة الإنسان فكنا تارة نخوض المياه أميالا وتارة نسير بين العشب فيعيقنا عن السير فنفرقه بأيدينا وبعد مسير ثلاثة أيام والحمى ملازمة لى خارت قوايا وانتزحت تحت شجرة لا أعى على نفسى وبقيت كذلك يوماً كاملا ثم أفقت وعدنا إلى المسير ولم نرى من الصيد فى هذه السفرة إلا نعامة وظليما فقتلت الظليم وأخذت ريشة . وبلغنا مشرع الريك وبعد مسير ثلاثة عشرة يوماً فلقيت هناك الضباط الذين جاءوا من أم درمان بدلا منا وكان بينهم البكباشى سكوت باربور وهو لا يكاد يصدق أى منى يأتيه الأمر بالسفر إلى داخل البلاد ولم يكن يعلم ما قدر له من غدر الأهالى به ولم تأت باخرة البريد فى اليوم المعين وكنت أخاف أنها إذا تأخرت عن المجىء لا أصل إلى التوفيقية قبل قيام البريد منها فيأست من وصولها وعلمت أنى سأبقى شهراً آخر فى بحر الغزال وإذا باخرة تصفر فأسرعت إلى شاطئ النهر لأراها فإذا هى باخرة اللفتننت فل فظننته قادماً من بحر الجور لأخذ المؤونة كالمعتاد فلما رآنى قال أسرع إلى الباخرة وآتى بأمتعتك فقد علمت أنك فى انتظار باخرة البريد ولما لم أرها مرت بى فى طريقها إلى المشرع جئت بباخرتى لأوصلك إلى التوفيقية قبل سفر البريد منها فنقلت أمتعتى وودعت الضباط والجنود وصعدت الباخرة وأنا أكاد أطير فرحاً وقبل مسيرنا بقليل رأينا البكباشى بلنوى قادماً من واو فقلنا له ماذا جاء بك قال قد أجبرنى البكباشى هيمس على السفر إلى مصر ثم صعد معنا إلى الباخرة وأقلعت بنا فكنا نسير ليلا ونهاراً حتى وصلنا إلى التوفيقية فإذا باخرة البريد قد أقلعت منها فواصلنا السير ولحقنا بها فى فاشوده وصعدنا إليها ثم شكرنا اللفتننت فل ثم ودعناه وعاد هو إلى بحر الغزال وسرنا نحن شمالا إلى الخرطوم فوصلناها فى أواسط شهر أكتوبر وكانت عيناى لا تفارق عبد الرحيم لأنه صار فى بلاد مأهولة ويخشى

فراره فسلمته إلى السجن وذهبت إلى المستشفى وبعد أيام سافرت إلى مصر فوصلت إليها بعد قيامى من واو بستة وأربعين يوماً .

خاتمة الرحلة

ذكرت رجوع أكثر الضباط الذين كانوا فى بحر الغزال وسأذكر ما حدث فى تلك البلاد بعد عودتنا منها وما أصاب الضباط الذين كانوا معنا مما لم أذكره فى سياق الرحلة .

مقتل البكباشى سكوت باربور

هو أحد الضباط الذين لقيتهم فى مشرع الريك فى طريقى من واو إلى الخرطوم ولم أكد أرتحل من بحر الغزال حتى سافر من مشرع الريك إلى رومباك ثم سار منها إلى بلدة يقال لها شامبى على النيل الأبيض بين مقاطعة اللادو وفاشودة وكان قد جاءها على باخرة من الخرطوم تحمل فصيلة من الجنود وثمانية وعشرون جملا وحمارين وبغلا فأنزل الجمال والدواب وسار بها عائداً إلى رومبك ومعه تسعة من الجنود المصرية وتسعة جنود سودانية وبعض المهاجرين وبعد مسير بضعة أيام وصل فى صباح العاشر من شهر يناير ١٩٠٢ — إلى نهر يعرف ببحر النعام فنزل عليه للمقيل وسرح الجمال والدواب وتفرق العساكر هنا وهناك بعضهم للعمل وبعضهم فى طلب الراحة وكانت النهر بطيحة صغيرة قد اجتمعت فيها أفراس النهر فأخذ آلة تصوير كانت معه وذهب ليصورها ثم صاد ثيتلا للجنود وعاد إلى المعسكر فوجد أن شيخ تلك الناحية واسمه إميانج متيانج قد بنى له سقيفة فجلس تحتها وجاء جماعة من الأهالى وهم من عشيرة من الدنكا تعرف بالأفار فأخذوا يتمشون فى المعسكر ذهاباً وإياباً واختلطوا بالجنود فلم يظن أحد بهم سوء لأنهم كثيراً ما كانوا يفعلون ذلك متى رأوا جنوداً نازلة بينهم وجاء إميانج ومعه أخواه ورجلان آخران ودخلوا فى السقيفة مسلمين ومع أحدهم قدح

من البن فقدمه للبكباشى وجلسوا يحادثونه ثم غافله أحدهم واختطف بندقيته وكانت بجانبه وطعنه آخر بحربته وهجم الرجال الذين بالمعسكر على الجنود وهم غافلون وقتلوهم طعناً بالحراب فلم ينج أحد من المصريين أما السودانيون فنجا منهم أربعة واحد عبر النهر سباحة وعاد إلى شامبى والثلاثة الآخرون فروا إلى رومبك وأخبروا بما رأوا فأنفذت الحكومة سريتين لقتال الآفار والاقتصاص منهم فسارت إحداهما من الروميك يقودها الميرالاى هنتر يك والأخرى من شامبى وقائدها الميرالاى ستاك بك وجرت عدة مناوشات بين الجنود والأفار انهزم فيها العصاة وقتل كثيرون منهم وتشتت شمل الباقين وشهد البكباشى هيمس هذه المعارك وأبلى بلاء حسنا وجرح جرحاً خفيفاً ولما وصلت الجنود إلى المكان الذى قتل فيه سكوت باربور والذين معه لم يروا إلا عظاماً مبعثرة ولم يجدوا من رفاته إلا جمجمته وقد عرفوها من أسنانه وكان بعضها محشواً بالذهب ثم عثروا على بعض ملابسه وكانت الحراب قد مزقتها تمزيقاً .

مقتل القائم مقام ارمسترنج بك

هو أحد الضباط الذين دخلوا بحر الغزال- بعدنا فلما كانت سنة أوائل ١٩٠٣ أخذ سرية من الجنود السود وجاويشاً إنكليزياً وصار قاصداً ناحية من بلاد النمانم عليها سلطان يقال له يانبيوا فبعد مسيرة بضعة عشر يوماً وقد اقترب من حدود بلاد السلطان نزل فيه أحد الأيام للمقيل ثم لما جاء العصر خرج فى طلب الصيد ومعه جنديان فرأى قطيعاً من الأفيال فانتقى فيلا منها وأخذ يقترب منها شيئاً فشيئاً ووقف الجنديان يرقبانه وإذا فيل قد هجم عليه من ورائه وهو لا يعلم فصرخ الجنديان الفيل الفيل فظن أنهما ينبهانه للفيل الذى أمامه فلم يلتفت وراءه بل أشار إليهما أن يسكتا وبقى سائراً والجنديان يناديانه ويقولون الفيل . الفيل . وكان الفيل قد دنا منه كثيراً فلم يريا بداً من إطلاق النار عليه لإيقافه أو صده عنه فلما سمع أرمسترنج بك إطلاق النار التفت وراءه وإذا فيل هائل قد لف عليه خرطومه وقذف به فى الهواء . ولما سقط أخذ يطعنه بنابيه ويدوسه

بأرجله حتى هشمه تهشيما والجنديان لا يزال يطلقان الرصاص عليه وهو لا يرجع عنه ثم تركه وسار فى طريقه . ولما سمع الجنود الذين فى المعسكر إطلاق الرصاص ظنوا عدواً فاجأ قائدهم فهبوا لنجدته وساروا فى الجهة التى سمعوا الصوت منها فإذا الجنديان عائدان فأخبراهم بما رأيا . ولما وصلوا إلى المكان الذى كان فيه لم يعرفوه لولا ثيابه وشهادة الجنديين اللذين كانا معه . وعلم ما نفى ابن السلطان ونائبه فى تلك النواحى بما أصاب قائد السرية فأخذ يدبر لها المكايد فى سيرها وعلم الجاويش أنه يريد الغدر بها فى ليلة معلومة فأوقد النيران وترك الأمتعة والدواب ليوهم الأعداء أنه غافل عنهم وانسل هو والجنود فى أوائل الليل وقفل بهم عائداً إلى التونج وجد فى السير حتى قطع فى الليلة الأولى أربعين ميلا ولم يقف حتى علم أنه قد نجا هو ومن معه .

مقتل البكباشى هيمس

وفى أوائل سنة ١٩٠٤ أنفذت الحكومة سرية أخرى لاحتلال بلاد السلطان يا نبيو وكان له ابنان أحدهما مانفى الذين مر ذكره والآخر يقال له ركيتا وهو عامل أبيه من ناحية أخرى ولما وصلت الجنود إلى بلاده فاجأها على غرة وكان البكباشى هيمس فى مقدمتها . وقد أخبرنى من شهد هذه الموقعة أنه وقف يقاتل وحده حتى سقط فى مكانه فلما وصل الجنود إليه وجدوه مصاباً بجرح فى رأسه وحوله جثث الأعداء فحملوه إلى التونج حيث توفى بعد أيام . وبعد مضى سنة سار الميرالاى بانوى بك بفصيلة من الجنود قاصداً بلاد يانبيو فجرت بينه وبين السلطان موقعة وحده قتل فيها السلطان وبعض رجاله واحتلت الحكومة بلاده .

هؤلاء هم الضباط الذين قتلوا فى تلك البلاد وكنت أود أن أختم رسالتى بما يسر القراء لكن لابد من ذكر ما أصاب سائر رفقاء هذه الرحلة . فسباركس باشا عين بعد عودتنا مديراً لسواكن ثم سافر إلى بلاد الإنكليز وتوفى فيها . وعاد الميرالاى بانوى بك والقائمقام فل بك إلى بحر الغزال وتوفيا هناك . وبقى الصاغ قولاغاسى على أفندى وهبى والملازم الأول محمد أفندى صبرى فى تلك البلاد

وتوفيا فيها وقتل اليوزباشي محمد أفندى على فى إحدى مواقع كردفان واليوزباشي أحمد أفندى كامل فى تجريدة الأنواك كما مر سابقا .

مستقبل البلاد

يتوقف مستقبل تلك البلاد وغيرها من الأنحاء الاستوائية على إبادة البعوض منها فبحر الغزال بلاد واسعة الأرجاء وافرة كثيرة المياه . هى جنة من جنان الدنيا لولا هذه الحشرة الصغيرة التى قوضت أركان الشرق وقضت على دولتى اليونان والرومان . والحرب قائمة الآن بين البشر وبين هذه الحشرات التى تنقل هذه الأمراض كالبعوض والذباب الأهلى وذباب مرض النوم والبق والبراغيث ولعل البعوض أشدها ضرراً بالإنسان وهو والمشاحانات الدينية أعظم الضربات على البلدان الشرقية . أما كثرته فى بعض الأنحاء الاستوائية فتفوق الوصف وليس من السهل إبادته منها فالمستنقعات التى يتولد فيها مساحتها ألوف من الأميال ويتعذر صرف المياه منها لأن أكثرها سهول منبسطة ولأن الأماكن التى تجرى فيها منابع النيل وسواعده فى أعاليها كانت كلها بطيحة واحدة فى سالف الدهر ولا يزال سطح الماء فيها على نسبة واحدة تقريباً .

أما هواء البلاد فمعتدل جداً فى الشتاء وهو فصل الجفاف فى الأنحاء الاستوائية ورطب جداً فى فصل الصيف وهو فصل المطر فيها ويقال بوجه الإجمال أن حرها أقل من حر البلدان التى على جانبى المدارين كصعيد مصر والنوبة وبعض أنحاء بلاد العرب كالحجاز وتهامة وغيرها من البلدان كبلواخستان وبعض أنحاء الهند وأستراليا .

وقد مر بنا ذكر الغابات وكثرتها فى تلك البلاد وما فيها من الشجر وأهمها شجر المطاط وكثرة حيواناتها ومراعيها الطيبة وخصب أرضها ففيها من موارد الرزق شىء كثير لكنها ستبقى للسود ولا يقوم للبيض فيها قائمة ما زال البعوض فيها .

الدكتور أمين المعلوف

ولد الفريق الدكتور أمين المعلوف فى الشويفات بلبنان عام ١٨٧١ وتلقى علومه فى الجامعات الأميركية فى بيروت وحصل على دبلوم كلية الطب (١٨٩٤) وفى سنة ١٨٩٨ جاء مصر والتحق بالقسم الطبى (الجيش المصرى) برتبة الملازم الأول وبقى به إلى ١٩٠٦ بعد أن ترقى لرتبة يوزباشى وقد شهد معركة أم درمان ورافق حملات الكاكا وبحر الغزال وغيرهما . وفى عام ١٩١٥ انتظم فى الحرب العظمى برتبة يوزباشى ووكيلا لكبار أطباء فرقة العمال فى مصر ثم استقال وعينه المغفور له الملك حسين كبيراً لأطباء الجيش والصحة فى الحجاز ثم استقال والتحق بالجيش العربى برتبة قائمقام ورافق الجيش المذكور عند فتح سوريا ولما استقرت الحالة عين فيها مديراً للكلية الطبية العربية ومستشاراً بوزارة الخارجية فى عهد اعتلاء المغفور له الملك فيصل عرش سوريا وقبل أن يدخل الجيش الفرنسى إلى دمشق ترك سوريا وعين فى سنة ١٩٢١ مديراً للأمور الطبية فى الجيش العراقى برتبة عقيد (قائمقام) ثم رقى إلى رتبة زعيم (أميرالاى) وأحيل إلى المعاش عام ١٩٣٣ برتبة فريق وتوفى سنة ١٩٤٣ ومنح فى خلال خدمته عدة أنواط ونياشين وكان فى جميع خدماته لم ينقطع عن الدرس والبحث والتأليف . ونشرت له عدة مقالات علمية فى المجلات المعروفة إذ ذاك وبينها المقتطف .

ومن أشهر مؤلفاته المطبوعة : معجم الحيوان والمعجم الفلكى (بالعربية والإنجليزية)

راجع عنه :

١ — رفائيل بطى : لغة العرب ٤ عام ١٩٢٧ ص ٣٩١ — ٣٩٢

٢ — الأمير مصطفى الشهابى : مجلة المجمع العلمى العربى دمشق ١٨ (١٩٤٣) ص ٢٥٨ — ٢٥٩

٤ — الدكتور مرشد خاطر : المقتطف ١٠٢ (١٩٤٣) ص ٤١٧ — ٤١٨

٥ — محمود مصطفى الدمياطى : المقتطف ١٠٢ (١٩٤٣) ص ٤٧٩ — ٤٨١

٦ — رسائل أحمد تيمور باشا إلى الأب أنستاس مارى الكرملى : ص ٨٤ طبعة كوركيس عواد وميخائيل عواد بغداد ١٩٤٧

استقينا هذه المعلومات من السيدين كوركيس عواد ببغداد وسامى الجسرى فى القاهرة فلهما الشكر

(المحرر)